المساجلات الشعرية

وأثرها في تطور الشعر في صدر الإسلام

دكتـور

محمد صبحي عبد الفتاح الجمال

مدرس الأدب والنقد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بدسوق

تقديم

أحمد الله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين ، وأشهد أن محمدا رسول رب العالمين ، خير مبعوث إلي خير أمة بخير دين ،

وبعد

لله در الأصمعي ، فمن العين التي فجرتها قولته المشهورة تنبجس هذه الصفحات التي تظهرنا علي أن الشر ليس هو الباب الوحيد للشعر ، وأن الكذب ليس هو السبيل إلي الإبداع ، لاسيما حين يتعلق الأمر بالدعوة إلي الإسلام والدفاع عن الرسول الكريم ، والجهاد بالكلمة ضد جحافل الكفر والطغيان ، والاضطلاع بحمل مشاعل الخير للبشرية ، وبالجملة فإن الشعر لا يعدم مداخل إلي الخير، وفي الصدق مندوحة عن الكذب ، أضف إلي ذلك من دواعي اختيار هذا الموضوع أنه يتزامن مع تلك الهجمة الشرسة التي يشنها الغرب اليوم ضد الرسول الكريم ﷺ ودينه القويم ، ومن ثم فإن العودة إلي هذا التراث الشعري الخالد إنما تمثل نوعا من الاستعلاء علي الواقع ، والاستدعاء لشخصيات الذائدين عن الدين الإسلامي ، وإيقاظا لمن آنس من نفسه رغبة في الذود عن الإسلام ، وسيرا علي درب الصحابة الأبرار والشعراء المؤمنين ،

وعلي الرغم من كثرة البحوث والمقالات التي عرضت لهذا الموضوع فإنه مايزال بحاجة إلي دراسة مستقلة تبرز هذا اللون الشعري الذي يلبي حاجة نفسية لدي كل مسلم ، و تتحمل عبء تحرير المصطلحات وتضيف مزيدا من العناية بالخصائص الفنية لهذا الشعر، وتهتم بجانب الموازنة الذي يكتنف جمهرة القصائد والمقطوعات ، كما يظهرنا هذا البحث علي حجم التطور الشعري والازدهار الأدبي الذي شهدته الساحة الأدبية في ذلك العصر ، فمثل هذا الفن إنما يفتق الأذهان ، ويذكي الشاعرية ، ويستجيش الموهبة ، ويبعث علي الإجادة ، وبخاصة بعد أن هذب

الإسلام أخلاق شعرائه ووجههم هذا الاتجاه الراقي بأن يركز الشاعر علي رد العدوان ودفع الشر بعيدا عن الفحش في القول والنيل من الأعراض ٠

والله أسأل أن يكون ما سلطته من أضواء كاشفا عن أهمية هذا الشعر، ونافيا عن عصره غبار الاتهامات ، ومسجلا لدور أولئك الشعراء ودفاعهم الباسل عن تعاليم الدين وقيم الإسلام ، هذا وما كان من توفيق فمن الله وحده وما كان من تقصير فمني وحسبي أنني اجتهدت في التعلق بالأسباب ، والحمد لله أولا وآخرا هو حسبنا ونعم الوكيل وصلي الله علي سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم ٠

الباحث / محمد صبحي الجمال

أضواء علي المساجلات الشعرية

مفهوم المساجلة : يقال : ساجل الرجل الرجل : باراه ، وأصله في الاستقاء، وهما يتساجلان ، والمساجلة : المفاخرة ، بأن يصنع مثل صنيعه في جرى أو سقى ، قال الفضل بن عباس ابن عتبه بن أبي لهب :

من يساجلني يساجل ماجدا يملأ الدلو إلي عقد الكرب

قال ابن برى أصل المساجلة أن يستقي ساقيان فيخرج كل واحد منهما في سجله مثل ما يخرج الآخر فأيهما نكل فقد غلب ، فضربته العرب مثلا للمفاخرة ، فإذا قيل فلان يساجل فلانا فمعناه أنه يخرج من الشرف مثل ما يخرجه ، وتساجلوا أي تفاخروا ، ومنه قولهم :الحرب سجال أي سجل منها علي هؤلاء وآخر علي هؤلاء ، وفي حديث أبي سفيان أن هرقل سأله عن الحرب بينه وبين النبي (صلي الله عليه وسلم) فقال له : الحرب بيننا سجال ، معناه إنا ندال عليه مرة ويدال علينا مرة أخري (١) ،

فمعني الكلمة يدور حول المسابقة والمنافسة والمناظرة والتحدي نظرا لحرص كلا الشاعرين علي التفوق علي صاحبه وإحراز السبق في مضمار الشعر وميدان الأدب .

بين المساجلة والمعارضة والمناقضة :

المعارضة في المفهوم الأدبي أن ينظم الأديب خصوصا الشاعر ما نظم الآخر من القصائد متقيدا بالموضوع والبحر والقافية سواء وافقه في المعني أو خالفه وسواء أكان الشاعران متعاصرين أم لا(٢) ،

---

(١) لسان العرب مادة (سجل)

(٢) المعارضة في الأدب العربي د/ إبراهيم عوضين م السعادة ط الأولي ١٩٨٠/٨

ومن نماذجها معارضات أمير الشعراء أحمد شوقي لرواد الشعر العربي في عصوره الزاهية ، ومنها معارضته المشهورة لسينية البحتري في وصف إيوان كسري ومطلعها :

صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدا كل جبس

وذلك بقصيدته السينية في الأندلس ومطلعها :

اختلاف الليل والنهار ينسيى اذكرا لي الصبا وأيام أنسي

وكذا معارضته لبردة البوصيرى في مدح الرسول الكريم ﷺ ومطلعها :

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

ويقول شوقي : مستهلا نهج البردة :

ريم علي القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

أما المناقضة فالعلاقة وثيقة بينها وبين المعارضة بحيث يمكن القول بأن الاثنتين ترجعان إلي أصل لغوي واحد فضلا عن اتفاقهما في الوزن والقافية وحركة الروي ، بيد أن الأمر لا يعدم بعض أوجه الاختلاف التي تتلخص في كون المعارضة تنظم في موضوعات متنوعة وأغراض مختلفة بين المديح والرثاء والغزل والوصف وغيرها علي حين تأتي النقيضة في قوالب لفظية يطغي عليها طابع السباب والشتائم والمهاترات ونبش الأحقاد وإثارة الضغائن وهدم ما بناه المتقدم بدافع الحقد والحسد والعداء والانتقاص من قدر من يناقضه ، فهدف المعارضة البناء والمنافسة الشريفة بدافع من الإعجاب والتأثر والمحاكاة الفنية ، أما النقيضة فهدفها الهدم والتحدي والهجاء المقذع والسباب الموجع ، ومن نماذجها المشهورة في كتب الأدب ما وقع بين جرير والفرزدق من نقائض منها قول الفرزدق :

جزعت إلي هجاء بني نمير وخليت است أمك للرماة

فأبصرني وأمك حين أرمي مشق عجانها بالنافرات

وتمسي نسوة لبني كليب بأفواه الأزقة مقعيات

زوايا سكـة نبتت حديثـــا بأخبـث نبتـة شـر النبـات
بأحـراج خبيثات الملاقـي شمطن وهن غيـرمختنات
يبعـن فروجـهن بكل فلس كبيع السوق خذ مني وهات
كبرن وهن أزني من قرود وأنجس من نساء مشركـات

فيرد عليه جرير قائلا :

نسيتم عقر جعثن واجتبيتم ألا تبـا لفخـرك بالحبـات
وقد دميت مواقــع ركبتيها من التبراك ليس من الصلاة
تبيت الليل تسلق إسكتـاها كدأب التـرك تلعب بالـكرات
وحط المنقـرى بها فقرت علي أم القفـا والليل عـات
تنـادي غالبا وبني عقـال لقد أخزيت قومك في النداة
وجـدنا نسوة لبني عقـال بدار الذل أغراض الـرمـاة
غـوان هن أخبث من حمير وأمجن من نساء مشركات
وسوداء المجـرد من عقال تبايع من دنا خذها وهات(١)

وتتفق المساجلات مع المعارضات والنقائض بما يكتنفها جميعا من المسابقة والمنافسة فضلا عن اتحادها في الوزن والقافية والموضوع ، لكن الباعث علي نظمها يختلف عن نظيره في الأخريين ، فالباعث علي المعارضة هو الإعجاب والمحاكاة والتأثر والتقليد بينما الدافع إلي المناقضة هو الحقد والحسد والكراهية والرغبة القوية في التحقير من شأن الآخر،

وأما المساجلة فيبعد أن يكون الباعث عليها هو الإعجاب أو الرغبة في المحاكاة نظرا لوقوعها بين طائفتين من الشعراء تختلف مشاربهم ومعتقداتهم فمنهم مدافع عن دين الله مؤيد بنصره وتعاليم رسوله ، ومنهم من يحادد الله حريص علي النيل

---

(١) تاريخ النقائض في الشعر العربي تأليف الأستاذ أحمد الشايب م النهضة المصرية ط الرابعة ٢٠٠٢ ص ٤١٨

من دينه والإساءة لنبيه ، كما يبعد أن تكون المساجلات الشعرية من النقائض التي نربأ بشعراء المسلمين عن الارتكاس في هوتها السحيقة والوقوع في براثنها المخزية وبخاصة أنها ترتبط في الأذهان بجريروالفرزدق (اللذين بلغا في نقائضهما درجة الإقذاع والإفحاش بطريقة تشمئز منها النفوس ، وتنكرها الأخلاق الفاضلة والتعاليم الدينية السمحة وتستحي الألسنة أن تردد نماذجها ـ المشار إليها آنفا ـ نظرا لما تنطوي عليه من هتك للحرمات وذكر للعورات الأمر الذي يقضى بغربتها عن المناخ السوي و مخالفتها الصارخة للدين الإسلامي.

ومن ثم فإنني أوثر ههنا إطلاق كلمة المساجلة بمعني المناظرة لتكون سلكا جامعا لهذا اللون من الأشعار التي كانت ثمرة للحروب والغزوات التي دارت رحاها بين كتائب الإيمان وجحافل الكفر بهدف النيل من الكفار باللسان والسنان في وقت معا ، والتي تعد سجلا صادقا للتاريخ الإسلامي والشعر العربي ، وصفحة من صفحات الدفاع الباسل عن الرسول وأصحابه ، وتمجيد البطولة الإسلامية في تلك الحقبة المهمة من التاريخ الإسلامي ٠

بواعث المساجلة :

تعددت الأسباب التي أذكت نيران المساجلة بين الجبهة الإسلامية في المدينة وكفار قريش ومن لف لفهم بمكة ، لكنها علي تنوعها يمكن تلخصيها في النقاط التالية :

(١) الباعث الديني :

ويأتي علي رأس البواعث التي أملت علي الشعراء قصائدهم ومساجلاتهم وبخاصة شعراء الجانب الإسلامي ، ولا غرو فلقد ندبهم الرسول لهذه المهمة وأذكي فيهم تلك الروح بعدما لقيه من قريش وأعوانها من صنوف الإيذاء وألوان البغي والعدوان وبعدما تبين له (ﷺ) من معرفة بتأثير الشعر في ردع تلك الحملات المسعورة التي لا ترعي في الرسول وصحابته إلا ولا ذمة ، ففي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله

عنها أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال : اهجوا قريشا فإنه أشد عليها من رشق النبل ، فأرسل إلي ابن رواحة فقال اهجهم فهجاهم فلم يرض ، فأرسل إلي كعب بن مالك ثم أرسل إلي حسان بن ثابت فلما دخل عليه قال حسان : قد آن لكم أن ترسلوا إلي هذا الأسد الضارب بذنبه ثم أدلع لسانه فجعل يحركه ، فقال : والذي بعثك بالحق لأفرينـــــهم بلساني فري الأديم ، فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم : لا تعجل فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها وإن لي فيهم نسبا حتي يخلص لك نسبي ، فأتاه حسان ثم رجع فقال يارسول الله قد خلص لي نسبك ، والذي بعثك بالحق لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين ، قالت عائشة : فسمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول لحسان " إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله " وقالت سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول : هجاهم حسان فشفي واشتفي (١)

وكان حسان عند حسن الظن به فلقد قارع شعراء المشركين من أمثال عبدالله ابن الزبعرى وسفيان بن الحارث وضرار بن الخطاب وغيرهم حتى انتصر عليهم و أخمل شعرهم وكان شعره كما قال النبى أشد عليهم من طعنات السيوف ، ولعل فى هذه الشجاعة الأدبية ما يؤكد القول بأن لسان حسان لم يقل فى نصرته للإسلام ودفاعه عن رسوله عن سيف خالد ، أضف إلي ذلك رغبة الصحابة لاسيما الشعراء منهم في الذود عن دين الله والدفاع عن رسوله الكريم ، وتأكيد الهيبة والعزة الإسلامية وردع القوى المتربصة بالإسلام في أرجاء الجزيرة العربية ، فكانوا إحدى القوى التي يؤيد الله بها الحق وينصر بها المؤمنين في تلك الحقبة الحاسمة من التاريخ الإسلامي .

---

(١) صحيح مسلم ت محمد فؤاد عبد الباقي ج ٤ - ص ١٩٣٥ ، ١٩٣٦

ويتصل بهذا الباعث ما كان للإسلام من أثر هام في إثارة الشاعرية المكية وتنبيه كفار قريش إلي ما يحيق بمكانتهم الدينية من الخطر الإسلامي القادم ، يقول الأستاذ أحمد الشايب : (وإذا كان ابن سلام يرد خمود الشاعرية القرشية في الجاهلية إلي أنه لم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا فلقد وجدت الثائرة والحرب الآن ، وأخذت عواطفهم تثور والأيام تتوالي ومكانتهم الدينية تمس وعليهم الآن أن يقفوا بسيوفهم وألسنتهم المكية أمام سيوف الأنصار وألسنتهم المدنية (١)

(٢) الباعث الفني :

ويقصد به رغبة الشعراء في إظهار البراعة الفنية والمقدرة البيانية وحرص كل شاعر أن يبذ الخصم ويتفوق عليه ويخمل ذكره ، فكان أحدهم حين يوجه إليه خصمه قصيدة سرعان ما يرد عليه بأخرى تدحض ما جاء فيها من مزاعم وترد ما تنطوي عليه من أباطيل ، باذلا أقصي ما يمكنه في التجويد ومظهرا كل ما لديه من إمكانيات فنية ، ومن ثم يمكن القول بأن المساجلات حققت رقيا عظيما للشعر وخلدت كثيرا من الشعراء وذلك لأنها (قامت علي أساس المنافسة والتحدي ، فاجتهد شعراؤها في تجويدها من حيث المعاني والألفاظ والصور والأساليب حتى كانت آخر ما انتهي إليه الشعر الإسلامي المحافظ بحيث يمكن اعتبارا المساجلات امتدادا ناضجا للشعر الجاهلي وتطورا خطيرا له ، وتأريخا للحياة الإسلامية من جهة الأيام والحوادث والبطولات(٢)

وبوجه عام كانت المساجلات ميدانا يتبارى فيه كل من حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحه وكعب بن مالك وغيرهم من شعراء الإسلام الذين شهروا سلاح الشعر في

---

(١) تاريخ النقائض ١٢٩

(٢) السابق ٤٤٥

وجه كل من عبد الله بن الزبعري وضرار بن الخطاب وأبي سفيان بن الحارث وسواهم ممن حرضوا علي قتال المسلمين وأشعلوا نار الحقد في القلوب وأظهروا التشفي بقتلي المسلمين وحضوا علي الثأر لقتلاهم من المشركين فارتفعت بذلك راية الشعراء وشهد ميدان المعركة البطولات الشعرية تتآزر مع البطولات القتالية في مواجهة قل أن نجد لها نظيرا في عصور الأدب والشعر ٠

(٣) الباعث القبلي :

لا يستطيع أحد أن ينكر أثر الباعث القبلي في شعر المساجلات وبخاصة لدي شعراء الجبهة المعادية للإسلام ، ولا غرابة فإذا كانت الرابطة الإسلامية جمعت بين القبائل المختلفة والأجناس المتباعدة ، وإذا كان الإسلام يقف من العصبية القبلية موقف الرفض المطلق والمعاداة الكاملة ، فإن الرابطة القبلية ظلت تحرك جموع الكفار وتثير ما يضطرم في أعماقهم من الحقد علي الإسلام والانتقام من المسلمين بعد أن تمزقت علي أيديهم تلك الرابطة التي طالما تشبث بها الأعراب في جاهليتهم وتعلقوا بأهدابها منذ قديم ،

يضاف إلي ذلك تجاور الأثرين الجاهلي والإسلامي في شعر الإسلاميين سواء في ذلك ما يتعلق بالألفاظ والأساليب أوالمعاني والأغراض أوالبواعث والمقومات ، ولعل السبب في ذلك أن الأعم الأغلب من أولئك الشعراء تخرجوا في مدرسة الشعر الجاهلي ومن ثم كانوا يقدمون علي المساجلة مستعينين بكل مذخورهم الثقافي ومعرفتهم بأيام العرب وتاريخهم ومناقبهم ومثالبهم ولم يكتفوا بهجاء الخصوم بالكفر أو الفخر عليهم بالانتماء إلي الإسلام وإنما كان البعض يعمد إلي تعييرهم بما يعرفون عنهم من المثالب والمخازي ،

ففي الأغاني كان يهجو رسول الله (ﷺ) ثلاثة رهط من قريش : عبدالله بن الزبعري ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعمرو بن العاص ، فكان يهجوهم ثلاثة من الأنصار حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحه ، فكان حسان

وكعب يعارضانهم بمثل قولهم ، بالوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب ، وكان عبد الله بن رواحه يعيرهم بالكفر ، فكان في ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب ، وأهون القول عليهم قول بن رواحه ، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحه (١)

أضواء علي النقائض الجاهلية

من بدائه الأمور أن تظهر النقائض في بداياتها الأولي من العصر الجاهلي أشبه بوليد يحبو نحو التمام وطفل ينشد الظهور في موكب الحياة وفن يفتقر إلي العديد من العناصر والمقومات ، ولا غرو فقد (كانت النقائض أول أمرها نثرا ثم رجزا ثم شعرا ، وكانت تنشأ علي أساس الانتصار في الحروب أو الخلاف في المواقف الاجتماعية مدعومة بالبراهين أو معتمدة علي الفخر والهجاء معا أو منفردين ، وكانت تعني بالمقابلة بين المعاني دون التزام سائر التقاليد فكانت أشبه برد وإنكار وبقيت كذلك مدة ما ، حتي كانت نهضة الشعر وظهور فحوله فتمت علي أيديهم تقاليدها وإن بقيت صورة الرد تتراءي خلال النقائض الكاملة المشهورة ، ومن أول ما يلقانا من هذه النصوص ما ورد في أقاصيص طسم وجديس أن امرأة من جديس شكت إلي ملكهم (عمليق) أن زوجها طلقها ويريد أخذ ابنها منها فقالت المرأة : (أيها الملك حملته تسعا ،ووضعته دفعا، وأرضعته شفعا ، فلما تمت أوصاله ،وحان فصاله ،أراد أخذه مني كرها، ليتركني مرها أي ذاهبة العقل ، فقال الزوج (أيها الملك ، أعطيتها المال كاملا ، ولم أصب منها طائلا ، إلا وليدا خاملا ، فافعل ما كنت فاعلا (٢)

فهذه مناظرة نثرية تحتج فيها المرأة بما لقيت في سبيل وليدها من متاعب

---

(١) الأغاني ١٢/١٣٢

(٢) النقائض للشايب ٤٥ باختصار

وآلام فيرد عليها الزوج ناقضا حجتها بما دفعه إليها من المال رجاء الظفر بوليد نجيب وغلام تقر به عين أبيه لكن شيئا من ذلك لم يكن ٠

ومن النماذج التي تمثل طورا مهما من أطوار النقائض والمساجلات ما دار بين امرىء القيس وعبيد بن الأبرص الأسدي حين قتلت بنو أسد حجرا فقال امرؤ القيس متوعدا إياهم :

والله لا يذهب شيخي باطلا حتى أبير مالكا وكاهلا
القاتلين الملك الحلا حلا خير معد حسبا ونائلا
يالهف هند إذ خطئن كاهلا نحن جعلنا القرح القوافلا
يحملننا والأسل النواهلا مستثفرات بالحصى جوافلا
يستثفر الأواخر الأوائلا فصرت فيهم غانما و قاتلا

فرد عليه عبيد بن الأبرص قائلا :

يا ذا المخوفنا بقت ل أبيه إذلالا وحينا
أزعمت أنك قد قتل ت سراتنا كذبا ومينا
هلا علي حجر بن أم قطام تبكي لا علينا (١)

فهذا رد تلقائي ومناقضة ساذجة بيد أنها تمثل هذا الفن في طوره الأول وصوره القديمة ومراحله الفطرية ٠

واستكمالا لهذه المراحل التي تدور حول الأيام والحروب والأحداث والمواقف نورد هذا النموذج وطرفاه الحارث بن ظالم المري وحاجب بن زرارة التميمي ذلك أن الحارث بن ظالم لما قتل جعفر بن كلاب العامري لحق بحاجب بن زرارة ، فلما طلبه بنو عامر نحاه عنه حاجب ، فغضب الحارث وقال :

لعمري لقد جاوزت في حي وائل ومن وائل جاورت في حي تغلب

---

(١) النقائض ٤٥

فأصبحت في حي الأراقم لم يقل لي القـوم يا حار بن ظالـم اذهب
وقد كان ظني إذ عقلت إليكم بني عبس ظني بأصحـاب يثرب
غداة أتاهم تبع في جنـوده فلم يسلموا المرين من حي يحصب
فإن تك في عليا هوازن شوكة فأعجب بها من حاجب ثم أعجب

فغضب حاجب وقال :

لعمر أبيك الخير يا حار إنني لأمنـع جـارا من كليب بن وائل
وقد علم الحي المعـدي أننـا علي ذاك كنا في الخطوب الأوائل
وإنا إذا ما جاء جائي ظلامة لبسنـا له ثوبي وفـاء ونائـل
وإن تميمـا لم تحارب قبيلة من الناس إلا أولعت بالكواهل
ولو حاربتنا عامر يا بن ظالم لعضت علينا عامر بالأنـامـل
ولاستيقنت عليا هوازن أننـا سنوطئـها في دارهـا بالقنـابل
ولكنني لا أبعث الحرب ظالما ولو هجتـها لم ألف شحمـة آكل (١)

فالحارث في أبيات الأولي يعتب علي حاجب بن زرارة أنـه لم يمنعه كما تمنـع تغلب من يستجير بها ولم يحل بينـه وبين أعدائـه فيرد عليـه حاجب بأنـه أعز من تغلب وساداتها بل إن أحدا من القبائل لا يساوى قبيلته وفاء ونجدة بيد أنه لم يشأ أن يبعث حربا أو يثير فتنة ، ويلاحظ أن الموضوع واحد وكذا البحر والقافية مختلفة .

وتبلغ النقائض أعلي مستوى لها في العصر الجاهلي حين تعني بالأيام وتتخذ من الحروب محورا تدور حوله فتسجل ما يكتنفها من ملابسات وما تشهده من بطولات وما يعقبها من نتائج وبخاصة ما كان بين الأوس والخزرج وأول هذه الأيام يوم (سمير) وكان للأوس علي الخزرج ، وسببه أن سميرا الأوسي قتل ضيفا من بني

---

(١) النقائض ٤٥

ذبيان يدعي كعبا التغلبى كان نزيلا علي مالك بن العجلان الخزرجى فتحارب الحيان ومما أثارته في نفوس الشعراء تلك المناظرة الشعرية بين قيس بن الخطيم شاعر الأوس وحسان بن ثابت الخزرجي ومما قاله قيس :

أبلغ بني جحجبي وإخوتهم زيدا بأنا وراءهم أنف
وأننا دون ما يسومهم ال أعداء من ضيم خطة نكف
نفلي بحد الصفيح هامهم وفلينا هامهم بها جنف
إن بني عمنا طغوا وبغوا ولج منهم في قومهم سرف

فرد عليه حسان قائلا :

بلغ عني النبيت قافية تذلهم ، إنهم لنا حلفوا
بالله جهدا لنقتلنكم قتلا عنيفا والخيل تنكشف
أوندع في الأوس دعوة هربا وقد بدا في الكتيبة النصف
كنتم عبيدا لنا نخولكم من جاءنا والعبيد تضطعف
كيف تعاطون مجدنا سفها وأنتم دعوة لها وكف
هلا غضبتم لأعبد قتلوا يوم (بعاث) أظلهم ظلف
نقتلهم والسيوف تأخذهم أخذا عنيفا وأنتم كشف
أن سميرا عبد طغي سفها ساعده أعبد لهم نطف(١)

فشاعر الأوس يبدو فرحا مزهوا بانتصار قومه في يوم سمير، فيرد عليه من الخزرج حسان بن ثابت مهددا متوعدا ومذكرا إياه بمن قتلوا في يوم بعاث الذي كان للخزرج علي الأوس ٠

صفوة القول أن النقائض الجاهلية تمثل هذا الفن الشعري في طوره الأول ، لذا كان من الطبعى أن تتعثر إبان نشأتها في هذه العقبات الأولي التي تتراءى في

---

(١) النقائض للشايب ٤٦

طفولة كل فن وأوليته السابقة ثم تتسم بسمات البراءة والسذاجة قبل أن تقوم أركانها وتقرر أصولها ، وقد رأينا أنها قامت علي الركن الأساسي فيها وهو نقض المعاني دون التزام بحر أو قافية ، فكان ردودا أو حوارا جدليا انتقل من النثر إلي النظم ، ولما كثرت الأيام وحميت العصبيات وتقدم الشعر وظهر الفحول واستمر التحدي بينهم ، وتعاظمت الجاهلية في نفوسهم ،أخذت النقائض تطول ، وتتكامل عناصرها ، وتخضع للتحدي الموضوعي والمعنوي والموسيقي حتى تمت لها قواعدها المعروفة ، وإن لم تبلغ من القوة والطول والدقة والسيرورة والعناية والتأثير ما بلغت أيام الأمويين (١)

---

(١) ينظر: النقائض ١٢٢ \ ١٢٣

المساجلات الشعرية في غزوة بدر:

تعد موقعة بدر الكبرى أولي المواجهات الحربية بين كتائب الإيمان وجحافل الكفر بعد أن أخرج الرسول وأصحابه من موطنهم تاركين أموالهم ومضحين بكل ما لديهم امتثالا لأمر الله عز وجل ونصرة للرسول ﷺ وحين استقر لهم الأمر بالمدينة إذا بهم يتطلعون إلي استرجاع أموالهم المغتصبة وحقوقهم المسلوبة ، وقد تزامنت تلك الرغبة مع مرور قافلة لأبي سفيان زعيم قريش فندب الرسول المسلمين ليأخذوها لقاء ما تركوا من أموالهم في مكة (غير أن الله أراد لعباده غنيمة أكبر ونصرا أعظم وعملا أشرف وأكثر انسجاما مع الغاية التي خلقوا من أجلها ألا وهي الدعوة إلي دين الله والجهاد في سبيله والتضحية بالروح والمال في سبيل إعلاء كلمته ، ومن هنا كان النصر حليف أبي سفيان في النجاة بتجارته بينما كان النصر حليفا للمسلمين في ميدان الجهاد (١)

وانطلق الشعر معبرا عن البطولة ومسطرا بكلماته المضيئة ذلك النصر المؤزر علي أعداء الإسلام الذي يعد دليلا ماديا وتطبيقا عمليا للتأييد الإلهي للمؤمنين في كل زمان ومكان لا سيما مع نقص المؤونة وقلة العدد وضعف الاستعداد ، ويفتتح ضرار بن الخطاب (*) شاعر المشركين المساجلات الشعرية بقوله منكرا علي الأنصار فرحهم وابتهاجهم بالنصر في بدر :

عجبت لفخر الأوس والحين دائر عليهم غدا والدهر فيه بصائر

---

(١) فقه السيرة د/ محمد سعيد البوطي دار السلام ط السادسة ١٩٩٩/١٥٥

(*) ضرار بن الخطاب بن مرداس بن كثير بن عمر بن سفيان بن محارب بن فهر القرشي كان فارسا شاعرا وكان أبوه رئيس بني فهر ولم يكن في قريش أشعر منه وبعده ابن الزبعري ، وكان يقاتل المسلمين في الوقائع أشد القتال وله ذكر في أحد والخندق ثم أسلم في الفتح وقتل باليمامة شهيدا ، الإصابة ٣ /٢٧٠

وفخر بني النجار إن كان معشر أصيبوا ببدر كلهم ثم صابر
فإن تك قتلي غودرت من رجالنا فإنا رجال بعدهم سنغادر
وتري بنا الجرد العناجيج وسطكم بني الأوس حتى يشفىالنفس ثائر
ووسط بني النجار سوف نكرها لأنها بالقنا والدارعين زوافر
فنترك صرعي تعصب الطيرحولهم وليس لهم إلا الأماني ناصر
وتبكيهم من أهل يثرب نسوة لهن بها ليل عن النوم ساهر
وذلك أنا لا تزال سيوفنا بهن دم مما يحاربن مائر
فإن تظفروا في يوم بدر فإنما بأحمد أمسى جدكم وهو ظافر
وبالنفر الأخيا ر هم أولياؤه يحامون في اللأواء والموت حاضر
يعد أبو بكر وحمزة فيهم ويدعي علي وسط من أنت ذاكر
ويدعي أبو حفص وعثمان منهم وسعد إذا ما كان في الحرب حاضر
أولئك لا من نتجت في ديارهم بنو الأوس والنجار حين تفاخر
ولكن أبوهم من لؤي بن غالب إذا عدت الأنساب كعب و عامر
هم الطاعنون الخيل في كل معرك غداة الهياج الأطيبون الأكابر (١)

فهو ينكر علي أهل المدينة افتخارهم بالنصر في بدر ناسبا إياه للمهاجرين من صناديد قريش أمثال أبي بكر وحمزة وعلي وعثمان وسعد بن أبي وقاص وذلك بغرض الإيقاع بين المهاجرين والأنصار حين يوهم المهاجرين بأن الأنصار بفخرهم يدعون أنهم هم وحدهم الذين حققوا النصر، ومن ثم كان رد كعب بن مالك بأن الذى حقق النصر هوالله سبحانه على يد كل من الأنصار والمهاجرين معاً ، وأنهم نسيج واحد وأن الأخوة التي جمعت بينهم في ظلال الإسلام أعمق من كل الروابط التي عرفها التاريخ الإنساني ، والمتأمل في الأبيات السابقة لضرار بن الخطاب لا تفوته

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام دار المنار ط الثانية ٦٢٠/١ ، الجرد العناجيج : الخيل القوية .

تلك النعرة الجاهلية التي عمادها التمدح بالآباء والأجداد والتفاخر بالأحساب والأنساب ، وما يلبث كعب بن مالك (*) حتى تستثيره تلك الأبيات فيغضب لله ولرسوله وللمؤمنين ويرد عليه بقصيدة من البحر نفسه ومما جاء فيها :

عجبت لأمر الله والله قادر ... علي ما أراد ، ليس لله قاهر
قضي يوم بدر أن نلاقي معشرا ... بغوا وسبيل البغي بالناس جائر
وقد حشدوا واستنفرا من يليهم ... من الناس حتى جمعهم متكاثر
وسارت إلينا لا تحاول غيرنا ... بأجمعها كعب جميعا وعامر
وفينا رسول الله والأوس حوله ... له معقل منهم عزيز وناصر
وجمع بني النجار تحت لوائه ... يمشون في الماذي والنقع ثائر
شهدنا بأن الله لا رب غيره ... وأن رسول الله بالحق ظاهر
وقد عريت بيض خفاف كأنها ... مقابيس يزهيها لعينك شاهر
بهن أبدنا جمعهم فتبددوا ... وكان يلاقي الحين من هو عاثر
فكب أبو جهل صريعا لوجهه ... وعتبة قد غادرنه وهو عاثر
وشيبة والتيمى غادرن في الوغى ... وما منهم إلا بذي العرش كافر
تلظي عليهم وهي قد شب حميها ... بزبر الحديد والحجارة ساجر
وكان رسول الله قد قال أقبلوا ... فولوا ، وقالوا: إنما أنت ساحر

(*) كعب بن مالك بن أبي كعب بن القين بن كعب بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة ، أبو عبد الله الأنصاري السلمي ويقال أبو بشير ويقال أبو عبد الرحمن ، كانت كنية كعب بن مالك في الجاهلية أبا بشير فكناه النبي (ﷺ) أبا عبد الله ، ولم يكن لمالك ولد غير كعب الشاعر المشهور شهد العقبة وبايع بها وتخلف عن بدر وشهد أحدا وما بعدها وتخلف في تبوك، وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم ، وروى عن النبي (ﷺ) ، مات بالشام في خلافة معاوية ص ٣٠٩ الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني دار الكتب العلمية ٣ /٥،٦

لأمر أراد الله أن يهلكوا به وليس لأمر حمه الله زاجر (١)

وحين نتأمل في كلتا القصيدتين نلحظ إغراق شاعر الكفار في الوعيد والتهديد والتكبر والتعاظم ، فأرغي وأزبد وأبرق وأرعد ومني نفسه بالظفر في معارك قادمة ، بينما تتجلي في أبيات كعب بن مالك علامات الرضا وأمارات اليقين وصفات التواضع والصبر علي الجهاد والاستبسال في سبيل الله ، يضاف إلي ذلك فخر الشاعر بالنبي وصحبه وانضواء القبائل تحت لوائه ، ويذكر بالمصير الذي ينتظر رؤوس الكفر وزعماء قريش من أمثال أبي جهل وعتبة وشيبة وغيرهم فهم في نار تلظي جزاء وفاقا لكفرهم بالله ومحاربتهم لدينه وإيذائهم لنبيه٠ ويقول عبد الله بن الزبعري (*) باكيا قتلي بدر من المشركين :

ماذا علي بدر وماذا حوله من فتية بيض الوجوه كرام
تركوا نبيها خلفهم ومنبها وابني ربيعة خير خصم فئام
والحارث الفياض يبرق وجهه كالبدر جلي ليلة الا ظلام
والعاصي بن منبه ذا مرة رمحا تميما غير ذي أوصام
تنمي به أعراقه وجدوده ومآثر الأخوال والأعمام
وإذا بكي باك فأعول شجوه فعلي الرئيس الماجدابن هشام
حيا الإله أبا الوليد ورهطه رب الأنام وخصه بسلام

فأجابه حسان بن ثابت بقوله :

ابك بكت عيناك ثم تبادرت بدم يعل غروبها سجام

---

(١) السيرة النبوية ٢/ ٦٢١

الماذي : الدروع البيضاء ، مقابيس : جمع مقباس وهو الشعلة من النار ٠

(*) عبد الله بن الزبعري ابن قيس ابن عدي بن سعيد بن سهم القرشي السهمي ، أمه عاتكة بنت عبد الله بن وهب بن حذافة بن جمح كان من أشعر قريش وكان شديدا علي المسلمين ثم أسلم في الفتح الاصابة ج٤ / ٦٨

ماذا بكيت علي الذين تتابعوا هلا ذكرت مكارم الأقوام
وذكرت منا ماجدا ذا همة سمح الخلائق صادق الإقدام
أعني النبي أخا المكارم والندي وأبر من يولي علي الأقسام
فلمثله ولمثل ما يدعو له كان الممدح ثم غير كهام (١)

وشاعر الكفار ههنا يبكي قتلاهم معددا أسماءهم البغيضة وأمجادهم الزائفة ومفاخرهم المزعومة دون أن يفوته الفخر بالآباء والأجداد والتنويه بمآثر الأخوال والأعمام ممن هم وقود النار وحطب جهنم من المكذبين الضالين ،

وحسان يوجه ابن الزبعرى إلي حقيقة مهمة أولى من هذه المحامد المصطنعة والمآثر المكذوبة وكأنه يلقنه درسا مفاده : أولي بك إن أردت الفخر أن تفخر بالشمائل المحمدية والخلائق الإسلامية التي تحمل بين طياتها المباركة الخير للعالمين ٠

ومن رؤوس اليهود وأشد الناس عداوة وإيذاء للنبي ﷺ كعب بن الأشرف (*) يدل علي ذلك ما ذكره ابن هشام أن كعبا هذا حين بلغه مقتل من قتل من المشركين في بدر قال مخاطبا بعض قومه : أحق هذا ؟ أترون محمدا قتل هؤلاء فهم أشراف العرب

وملوك الناس ، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير

---

(١)السيرة النبوية ٦٢٢/١ سجام : غزير ، الفئام : الجماعة من الناس ، أوصام : جمع وصم وهو الشق في العود ، كهام : كهم الرجل بطؤ عن الحرب والنصرة ٠

(*) كعب بن الأشرف النضرى أحد بني نبهان الطائيين وأمه يهودية من بني النضير ، وكان شاعرا فارسا قوي الشكيمة ، وله مناقضات مع حسان وغيره وبعد هجرة النبي إلي المدينة عاداه كعب حيث كان من أهل الحصون ، وكان ذا نفوذ كبير في قومه ، فكان يحرضهم علي المسلمين وكان شعره سلاحا حادا ذا خطر عليهم ، وأخذ يعادى النبي بشعره ويشبب بنساء المسلمين حتى أذاهم ونال منهم فخرج إليه محمد بن سلمه ونفر من الأوس فقتلوه ٠

من ظهرها ، فلما تيقن عدو الله الخبر خرج حتى قدم مكة وجعل يحرض علي رسول الله وينشد الأشعار ويبكي أصحاب القليب من قريش وها هو ذا يترجم عن حقده وكراهيته للإسلام والمسلمين من خلال أبيات نظمها في بكاء قتلي بدر من المشركين والتحريض علي قتال المسلمين فتراه يعدد مآثر القتلي ويستوحي أمجادهم القديمة في العصر الجاهلي ، ولا غرو فالحقد يجمع بين الحاقدين ، يقول :

طحنت رحى بدر لمهلك أهله ... ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم ... لا تبعدوا إن الملوك تصرع
كم قد أصيب به من أبيض ماجد ... ذي بهجة تأوي إليه الضيع
طلق اليدين إذا الكواكب أخلفت ... حمال أثقال يسود ويربع
ويقول أقوام أسر بسخطهم ... إن ابن أشرف ظل كعبا يجزع
صدقوا فليت الأرض ساعة قتلوا ... ظلت تسوخ بأهلها وتصدع
نبئت أن بني المغيرة كلهم ... خشعوا لقتل أبي الحكيم وجدعوا
وابنا ربيعة عنده ومنبه ... ما نال مثل المهلكين وتبع
نبئت أن الحارث بن هشامهم ... في الناس يبني الصالحات ويجمع

فأجابه حسان بن ثابت فقال له :

لا زال كعب يستهل دموعه ... للهالكين مجدعا لا يسمع
فلقد رأيت ببطن بدر منهم ... قتلي تسح لها العيون وتدمع
فابك فقد أبكيت عبدا راضعا ... شبه الكليب إلي الكليبة ينزع
ولقد شفي الرحمن منا سيدا ... وأهان قوما قاتلوه وصرعوا
ونجا وأفلت منهم متسرعا ... فل قليل هارب يتمزع
ونجا وأفلت منهم من قلبه ... شعف يظل لخوفه يتصدع (١)

---

(١) السيرة النبوية ١/ ٦٤٥

فحسان ههنا يصدر عن لون من الراحة النفسية التي من الله بها علي المسلمين في تلك المواجهة الفاصلة ، ولا غرو فلقد ارتفعت فيها راية الإسلام ونكست أعلام الكفر وديست كرامة الشرك والطغيان ، بيد أن بادرة هجاء جاهلي بغيض قد أطلت برأسها في البيت الثالث حيث صور من يبكي قتلي بدر بالكلب وقد حيل بينه وبين ثدي أمه ، ويمكن أن يعد هذا التصويرالبغيض أثرا من آثار البيئة الصحراوية في العصر القديم.

ومما يذكر لغزوة بدر أنها أنطقت بالشعر أناسا لم يعرفوا به كحمزة بن عبد المطلب الذي أسهم في التأريخ لهذه الغزوة إسهاما بارعا وسجل انتصار المسلمين فيها تسجيل البطل الجسور، ولا غرو فلقد نصر الله به الإسلام ورجحت به كفة المسلمين فسجل بشعره بطولة صنعها بسيفه ومعركة كان هو بطلها الفذ وفارسها المقدام ، يقول :

ألم تر أمرا كان من عجب الدهر ... وللحين أسباب مبينة الأمر
وما ذاك إلا أن قوما أفادهم ... فخانوا تواصوا بالعقوق وبالكفر
عشية راحوا نحو بدر بجمعهم ... فكانوا رهونا للركية من بدر
وكنا طلبنا العير لم نبغ غيره ... فساروا إلينا فالتقينا علي قدر
فلما التقينا لم تكن مثنوية ... لنا غير طعن بالمثقفة السمر
وضرب ببيض يختلي الهام حدها ... مشهرة الألوان بينة الأثر
ونحن تركنا عتبة الغي ثاويا ... وشيبة في القتلى تجرجم في الجفر
وعمرو ثوي فيمن ثوى من حماتهم ... فشقت جيوب النائحات علي عمرو
جيوب نساء من لؤى بن غالب ... كرام تفر عن الذوائب من فهر
أولئك قوم قتلوا في ضلالهم ... وخلوا لواء غير محتضر النصر (١)

---

(١) الركية : البئر ، مثنوية : رجوع ، تجرجم في الجفر : تسقط في البئر المتسعة .

لواء ضلال قـاد إبليس أهلــه فخاس بهم،إن الخبيث إلي غدر
وقال لهم إذ عاين الأمر واضحا برئت إليكم ما بى اليوم من صبر
فإني أرى مــا لا ترون وإننى أخاف عقاب الله ، والله ذو قسر
فقدمهم للحين حتي تورطوا وكان بما لم يخبر القوم ذا خبر
فكانوا غداة البئر ألفا وجمعنــا ثلاث مئين كالمسدمة الزهــر
وفينا جنود الله حين يمدنـــا بهم في مقام ثم مستوضح الذكر
فشد بهم جبريل تحت لوائنـا لدي مأزق فيه مناياهم تجرى

فأجابه الحارث بن هشام بن المغيرة (*) فقال :

ألا يا لقومي للصبابة والهجـــر وللحزن مني والحرارة في الصدر
وللدمـع من عيني جـوادا كأنـه فريد هوي من سلك ناظمة يجري
علي البطل الحلو الشمائل إذ ثوى رهين مقــام للركيــة من بـــدر
فلا تبعدن يا عمرو من ذي قرابة ومن ذي ندام كان ذا خلق غمــر
فإن يك قوم صادفوا منك دولة فلابد للأيــام من دول الدهـــــر
فقد كنت في صرف الزمان الذي مضي تريهم هوانا منك ذاسبل وعر
فإلا أمت يا عمرو أتركك ثائرا ولا أبق بقيـا في إخــاء ولا صــهر
وأقطع ظهرا من رجال بمعشر كرام عليها مثل ما قطعوا ظهـري

خاس : خبث وفسد ، المسدمة : فحول الإبل ٠

الحـارث بـن هشـام بـن المغيرة بـن عبد الله بـن عمرو بـن مخزوم ٠ أبو عبد الرحمن القرشي المخزومي أخو أبو جهل وابن عم خالد بن الوليد وأمـه فاطمـة بنت الوليد بن المغيرة كـان شريفا مذكورا ، شهد بدرا مع المشركين وكان فيمن انهزم فعيره حسان ، شـهد أحدا مشركا حتى أسلم يوم الفتح ثم حسن إسلامه فقد خرج الحارث في زمن عمر بأهله ومالـه من مكـة إلـي الشام فتبعه أهل مكة فقال لو استبدلت بكم دارا بدار ما أردت بكم بدلا ولكنهـا النقلـة إلـي الله فلم يزل مجاهدا بالشام حتي ختم الله له بالخير الإصابة ج١ / ٦٩٨

أغرهـم ما جمعـوا من وشيظة ونحن الصميـم في القبائل من فهر
فيال لؤي ذببـوا عن حـريمكم وآلهة لا تتركـوها لذي الفخـــر
توارثها آباؤكـــــم وورثتم أواسيها والبيت ذا السقف والستر
فما لحليـم قد أراد هلاككـم فلا تعــذروه آل غالب من عــذر
وجـدوا لمن عاديتم وتوازروا وكونوا جميعا في التأسي وفي الصبر
لعلكم إن تثـأروا بأخيكـم ولا شيء أن تثأروا بذوي عمـرو
بمطردات في الأكف كأنهـا وميض تطير الـهـام بينـة الأثر
كان مدب الذر فوق متونهـا إذا جردت يوما لأعدائها الخزر (١)

وفي بدر الآخرة يصب حسان بن ثابت جام غضبه علي قريش وأعوانها من أمثال فرات بن حيان دليل تجارتهم إلي الشام وقيس بن امرئ القيس العجلي الذي كان يجير عير قريش وأبي سفيان بن الحارث الذي اشتهر قبل إسلامه بعداوته للمسلمين ومما قاله :

دعوا فلجات الشام قد حـال دونـهـا جلاد كأفـواه المخاض الأوارك
بأيدي رجــال هاجـروا نحو ربهـم وأنصـاره حقـا وأيدي الملائك
إذا سلكت للغـور من رمـل عالــج فقولا لـها ليس الطريق هنالك
فإن نلق في تطوافنـا والتماسنــا فرات بن حيان يكن وهن هالك
وإن نلق قيس بن امرئ القيس بعده نزد في سواد وجهه لون حالك
فأبلــغ أبا سفيــان عني رسالــة فإنك من شر الرجـال الصعالك

فأجابه أبو سفيان بن الحارث :

أحســان إنا يابن آكلــة الفـغــا وجـدك نغتال الخـروق كذلك

---

(١) السيرة النبوية ٦٢٠٠/١ أواسيها : جمع أوس وهو العوض والعطية ، وشيظة : الرجل إذا كان دخيلا في القوم ، الفلجات : ما شق من الديار ، الأوارك : المقيمات في أراك يرعينه .

إذا ماانبعثنـا من مناخ حسبتـه مدمـن أهل الموسـم المتعـارك
أقمت علي الرأس النزيع تريدنا وتتركنا في النخل عند المـدارك
حسبتم جـلاد القوم عند قبابهم كمأخـذكـم بالعين أرطـال آنك
فلا تبعث الخيل الجياد وقل لها علي نحو قول المعصم المتماسك
شقيتم بها وغيركم كان أهلها فوارس من أبناء فهر بن مـالك
فإنك لا في هجرة إن ذكرتها ولا حرمات الدين أنت بناسك (١)

(فقد تتبع الحارث دعاوي حسان بالنقض كما نري في رده علي قول حسان : (رجال هاجروا نحو ربهم) إذ يقول (فإنك لا في هجرة إن ذكرتها) يعني أنك لست من المهاجرين فليس لك فضل الهجرة ، وزاد بأن نفي عنه ادعاء التقوي ، ولما افتخر حسان بمقدرة جيش المسلمين علي اغتنام عير قريش عنوة ودحر حراسها والضامنين لها من العرب نقض أبو سفيان هذا المعني وادعي أن من دون ذلك أهوال ، ونصح المسلمين بألا يغامروا هذه المغامرة لأنها سيئة العاقبة ، وألا يبعثوا الخيل لاعتراض عير قريش وإلا كانوا كمن يشقي نفسه في الغرس ثم يأتي غيره فيجني الثمر (٢)

---

(١) السيرة النبوية ١٢٤/٢ ، الفغا : غبرة تعلو التمر قبل أن ينضج ، الآنك : الرصاص .

(٢) لأدب في عصر النبوة والراشدين د/ صلاح الدين الهادي م الخانجي ط الثالثة ١٩٨٧/٢٧٤

أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم ابن عم رسول الله (ﷺ) وأخوه من الرضاعة ، أرضعتها حليمة السعدية ، اسمه المغيرة وقيل اسم كتبه والمغيرة أخوه ، كان يشبه رسول الله (ﷺ) ، قال (ﷺ) عنه : أبو سفيان بن الحارث سيد فتيان أهل الجنة ، كان أبو سفيان ممن يؤذي رسول الله ويهجوه ويؤذي المسلمين وإلي ذلك أشار حسان بقوله : هجوت محمدا فأجبت عنه ... أسلم أبو سفيان يوم الفتح ، شهد حنينا فكان ممن ثبت مع النبي (ﷺ) مات سنه ١٥ في خلافة عمر فصلي عليه ويقال سنه عشرين ، ويقال : حلقه الحلاق بمني وفي رأسه ثؤلول فقطعة فمات الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ج ٧ /١٥١ دار الكتب العلمية بيروت .

المساجلات الشعرية في غزوة أحد

يعد يوم أحد مضمارا أساسيا للمساجلات الشعرية سواء من ناحية الكم أو الكيف جميعا ، نظرا لكثرة القصائد التي نظمت فيه وإسهام كل من الشعراء و الشواعر في إذكاء نارها وإيقاد جذوتها ، يضاف إلي ذلك أن شعراء الفريقين اتخذوا من وقعة بدر عدة عسكرية وأدبية للمواجهات التي تلتها وبخاصة أنها تعد ضربة قاصمة للصلف القرشي والغطرسة الشركية فكانت وقودا للحقد الذي تغلي به مراجل الكفار ويتغلغل في أعماقهم الجاحدة ويضطرم في نفوسهم الباغية علي الإسلام والمسلمين ، ومما زاد الخطب جسامة والموقف اشتعالا تلك النكبة المؤلمة التي أصابت المسلمين بسبب مخالفة البعض لأوامر النبي ﷺ فضلا عن قتل عدد من أبطال الإسلام وعلي رأسهم سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، ولقد تتبع الشعراء بالوصف الدقيق هذه المعركة الفاصلة بكل ما سبقها من الإعداد وما شهدته من البطولات وما أعقبها من النتائج فضلا عن رثاء القتلى وبكاء الشهداء ، وبالجملة فإن غزوة أحد وإن أثرت تأثيرا سلبيا علي الناحية العسكري فقد كان أثرها إيجابيا علي المستوى الأدبي والشعري ،

وكانت بداية الحرب إيذانا بانبعاث شعري وانطلاق شرارة المساجلات التي ابتدأها ابن الزبعري منددا بقتلي المسلمين في أحد ، ومفتخرا بما حققته شراذم الكفار ومن ناصرهم من أخلاط العرب من نصر ، ومما جاء في قصيدته :

يا غراب البين أسمعت فقل	إنما تنطق شيئا قد فعل
إن للخير والشر مدي	وكلا ذلك وجه وقبل
والعطيات خساس بينهم	وسواء قبر مثر ومقل
كل عيش ونعيم زائل	وبنات الدهر يلعبن بكل
أبلغا حسان عني آية	فقريض الشعريشفي ذاالغلل

كم تري بالجر من جمجمة وأكف قد أترت ورجل
وسرابيل حسان سريت عن كماة أهلكوا في المنتزل
كم قتلنا من كريم سيد ماجد الجدين مقدام بطل
صادق النجدة قرم غير ملتاث لدي وقع الأسل
فسل المهراس ما ساكنه بين اقحاف وهام كالحجل
ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل
حين حكت بقباء بركها واستحر القتل في عبد الأشل
ثم خفوا عند ذاكم رقصا رقص الحفان يعلوا في الجبل
فقتلنا الضعف من أشرافهم وعدلنا ميل بدر فاعتدل
لا ألوم النفس إلا أننا لو كررنا لفعلنا المفتعل
بسيوف الهند تعلو هامهم علا تعلوهم بعد نهل

فيجيبه حسان بن ثابت بقوله :

ذهبت بابن الزبعري وقعة كان منا الفضل فيها لو عدل
ولقد نلتم ونلنا منكم وكذاك الحرب أحيانا دول
إذ شددنا شدة صادقة فأجأناكم إلي سفح الجبل
إذ تولون علي أعقابكم هربا في الشعب أشباه النمل
نضع الخطي في أكتافكم حيث نهوي علا بعد نهل
وشدخنا في مقام واحد منكم سبعين غير المنتحل
وأسرنا منكم أعدادهم فانصرفتم مثل إفلات الحجل
بخناطيل كحنان الملا من يلاقوه من الناس يهل

المهراس : اسم الآلة التي يدق بها ويهرس ، أقحاف : عظم الرأس ، الحجل : صغار الإبل
الحفان : فراخ النعام .

يخرج الأصبح من أستاهكم كسلاح النيب يأكلن العصل
لم يفوتونا بشيء ساعة غير أن ولوا بجهد وفشل
ضاق عنا الشعب إذ نجزعه وملأنا الفرط منهم والرجل
برجال لستم أمثالهم أيدوا جبريل نصرا فنزل
وعلونا يوم بدر بالتقي طاعة الله وتصديق الرسل
وقتلنا كل رأس منهم وطعنا كل جحجاح رفل
وتركنا في قريش عورة يوم بدر وأحاديث المثل
ورسول الله حقا شاهد يوم بدر والتنابيل الهبل (١)

وحسان ههنا يلفت ابن الزبعري إلي وجوب الالتزام بأصول القول ومعايير المناظرة، ذلك أنه لو أنصف لما تجاهل النصر الإسلامي في جولته الأولي أعني يوم بدر ، كما يذكره بأنه النصر في أحد لو صح أنه من نصيب الكفار فإنه لا يعدو أن يكون ردا علي هزيمتهم الأولي أو حلقة من حلقات الصراع الدائر بين الجبهتين وأن العبرة ممن يحقق النصر في جولاته الأخيرة ، فحسان ههنا يسلك في أبياته مسلك الموازنة بين موقعتين كانت الغلبة في أولاهما لأبطال الإسلام وجند الحق حيث استمدوا قوتهم من الإيمان بالله والطاعة المطلقة لرسوله فضربوا بشجاعتهم وبسالتهم أروع المثل في التضحية والفداء ، ومن النماذج النادرة التي سجلتها كتب السير قول عمرو بن العاص قبل انضوائه تحت الراية الإسلامية :

خرجنا من الفيفا عليهم كأننا مع الصبح من رضوي الحبيك المنطق
تمنت بنو النجار جهلا لقاءنا لدي جنب سلع والأماني تصدق

---

(١) السيرة النبوية ٢/ ١٦٠ ، شدخنا : صرعنا ، خناطيل : جماعات ، حنان الملا : حي من الجن ، يهل : يرتاع من الهول ،النيب : الإبل المسنة ، العصل : جمع عصلة وهي شجرة تسلح الإبل ، الرجل : مسايل الماء في الأودية ، الفرط : نشوز الأرض وآجامها ، جحجاح : هو السيد ، رفل : هو من يسير جارا ثوبه خيلاء وتبخترا ، التنابيل : يقصد الأنصار.

فما راعهم بالشر إلا فجاءة كراديس خيل في الأزقة تمرق
أرادوا لكيما يستبيحوا قبابنا ودون القباب اليوم ضرب محرق
وكانت قبابا أومنت قبل ما تري إذا رامها قوم أبيحوا وأحنقوا
كأن رؤس الخزرجيين غدوة وأيمانهم بالمشرقية بروق (١)

فأجابه كعب مالك قائلا :

ألا أبلغا فهرا علي نأى دارها وعندهم من علمنا اليوم مصدق
بأنا غداة السفح من بطن يثرب صبرنا ، ورايات المنية تخفق
صبرنا لهم والصبر منا سجية إذا طارت الأبرام نسمو ونرتق
علي عادة تلكم جرينا بصبرنا وقدما لدي الغايات نجري فنسبق
لنا حومة لا تستطاع ، يقودها نبي أتي بالحق عف مصدق
ألا هل أتي أفناء فهر بن مالك مقطع أطراف وهام مفلق (١)

فعمر بن العاص في تصويره للمعركة يلقي الضوء علي مباغتة خيل الكفار لجموع المسلمين وما حققوه من النصر في هذا اليوم وعجز المسلمين عن مواجهة تلك الجيوش المتراصة ، بينما يسلك كعب مسلك التصبر والاحتساب علي ملاقاة الأعداء طمعا في إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة ، فكلا الشاعرين يصور الحدث تصويرا يؤيد موقفه وهو ما يعبر عنه بطريقة التوجيه (٢)

الفيفا : المفازة ، رضوي: جبل الحييك :ما فيه طرائق المنطق :المخرم سلع : اسم جبل خارج المدينة كراديس : جموع بروق : نوع من النبات له رؤس تشبه البصل ، عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد القرشي السهمي أمير مصر ويكني أبا عبد الله وأبا محمد أمه النابغة من بني عنزة ، أسلم قبل الفتح ولما أسلم كان النبي يقربه ويدينه لمعرفته وشجاعته وولاة غزاة ذات السلاسل وأمده بأبي بكر وعمر وأبي عبيدة ثم استعمله علي عمان فمات وهو أميرها ، ثم كان من أمراء الأجناد في الجهاد بالشام في زمن عمر ، الإصابة ٣٠٢/٥

(٢) ينظر : النقائض ٤٠

ومن أكابر شعراء الجبهة القرشية هبيرة بن أبي وهب المخزومي ، ومما قاله واصفا انتصارهم علي المسلمين في أحد ، ومفتخرا بالجموع القرشية ومن ناصرها من قبائل العرب تلك القصيدة التي مطلعها :

ما بال هم عميد بات يطرقني بالود من هند إذ تعدو عواديها

ومنها قوله :

سقنا كنانة من أطراف ذي يمن عرض البلاد علي ما كان يزجيها

قالت كنانة أني تذهبون بنا ؟ قلنا : النخيل ، فأموها ومن فيها

نحن الفوارس يوم الجر من أحد هابت معد فقلنا نحن نأتيها

هابوا ضرابا وطعنا صادقا خذما مما يرون وقد ضمت قواصيها

ثمت رحنا كأنا عارض برد وقام هام بني النجار يبكيها

كأن هامهم عند الوغى فلق من قبض ربد نفته عن أداحيها

أو حنظل زعزعته الريح في غصن بال تعاوره منها سوافيها

قد نبذل المال سح ا لا حساب له ونطعن الخيل شزرا في مآقيها

فأجابه حسان بن ثابت سالكا طريق التهديد والوعيد حيث يقول :

سقتم كنانة جهلا من سفاهتكم إلي الرسول فجند الله مخزيها

أوردتموها حياض الموت ضاحية فالنار موعدها والقتل لاقيها

جمعتموهم أحابيشا بلا حسب أئمة الكفر غرتكم طواغيها

ألا اعتبرتم بخيل الله إذ قتلت أهل القليب ومن ألقينه فيها

كم من أسير فككناه بلا ثمن وجز ناصية كنا مواليها (١)

فالشاعر القرشي أسهب في وصف الجموع الحاشدة والقبائل المتآمرة والحرب الطاحنة ، وتأتي إجابة حسان علي الرغم من صياغتها في أبيات قليلة وعبارات

---

(١) السيرة النبوية ٢ / ١٦٥ ، خذما : سريعا ، ربد : غبرة

محددة لكنها تدحض ما انطوت عليه قصيدة هبيرة من مزاعم وتنقض ما ورد فيها من أباطيل ، فهذه الجموع إنما حشدها الجهل والسفه والتآمر علي رسول الإنسانية وداعية الخير ومن ثم يتهددهم بالقتل في الجولات القادمة والخزي والعذاب في الآخرة.

ويتصل بهذه الغزوة ذكر الشعراء للأبطال ورثاؤهم للشهداء الذين آثروا الحياة في أعالي جنان الخلد مع النبيين والصديقين ، ويأتي علي رأس هؤلاء بطل الإسلام وعم النبي حمزة بن عبد المطلب ، ومما يذكر ههنا أن الشعر قد واكب هذا الحادث الجلل ، وأن الشعراء اتخذوا من رثاء حمزة محورا لكثير مما نظم في إطار هذه الغزوة من قصائد ، ومما قاله كعب بن مالك باكيا هذا البطل الجسور حمزة بن عبد المطلب وسائر قتلي المسلمين :

نشجت وهل لك من منشج ... وكنت متى تذكر تلجج
تذكر قوم أتاني لهم ... أحاديث في الزمن الأعوج
فقلبك من ذكرهم خافق ... من الشوق والحزن المنضج
وقتلاهم من جنان النعيم ... كرام المداخل والمخرج
بما صبروا تحت ظل اللواء ... لواء الرسول بذي الأضوج
غداة أجابت بأسيافها ... جميعا بنو الأوس والخزرج
وأشياع أحمد إذ شايعوا ... علي الحق ذي النور والمنهج
فما برحوا يضربون الكماة ... ويضمون في القسطل المرهج
كذلك حتى دعاهم مليك ... إلي جنة دوحة المولج
فكلهم مات حر البلاء ... علي ملة الله لم يحرج
كحمزة لما وفي صادقا ... بذي هبة صارم سلجج (١)

---

(١) ذي الأضوج : موضع ، القسطل المرهج : الغبار الساطع ،

فلاقاه عبد بني نوفل يبرر كالجمل الأدعج
فأوجره حربة كالشهاب تلهب في اللهب الموهج
ونعمان أوفي بميثاقه وحنظلة الخير لم يحنج
عن الحق حتى غدت روحه إلي منزل فاخر الزبرج
أولئك لا من ثوي منكم من النار في الدرك المرتج

فيرد عليه ضرار بن الخطاب فيقول :

أيجزع كعب لأشياعه ويبكي من الزمن الأعوج
عجيج المذكي رأي إلفه تروح في صادر محنج
فراح الروايا وغادرنه يعجعج قسرا ولم يحدج
فقولا لكعب يثني البكا وللنىء من لحمة ينضج
لمصرع إخوانه في مكر من الخيل ذي قسطل مرهج
فياليت عمرا وأشياعه وعتبة في جمعنا السورج
فيشفوا النفوس بأوتارها بقتلي أصيبت من الخزرج
وقتلي من الأوس في معرك أصيبواجميعا بذي الأضوج
ومقتل حمزة تحت اللواء بمطرد ، مارن ، مخلج
وحيث انثني مصعب ثاويا بضربة ذي هبة سلجج
بأحد وأسيافنا فيهم تلهب كاللهب الموهج
غداة لقيناكم في الحديد كأسد البراج فلم نعنج
بكل مجلحة كالعقاب وأجرد ذي ميعة مسرج
فدسناهم ثم حتى أنثوا سوي زاهق للنفس أومحرج (١)

---

(١) السيرة النبوية ٢ / ٧٠ ، المرتج : المغلق ، عجيج : ارتفاع الصوت ، محنج : المحنج الذي إذا مشي نظر خلفه برأسه وصدره ، لم يحدج : الحدج : مركب النساء ، لم نعنج : العنج : جذب خطام البعيراستعدادا للهرب ، مجلحة : القوس الجماء .

فكعب يذرف الدمع الغزير علي أولئك الأبطال الذين استجابوا لله والرسول وصبروا علي جهاد المشركين فانضووا طائعين تحت الراية المحمدية وطلبوا الشهادة بعد ما أبلوا أحسن البلاء فاستحقوا ما أعده الله نزلا للشهداء في أعالي الجنان ، وعلي رأس هؤلاء الشهداء حمزة بن عبد المطلب الذي ضرب أروع مثل وصدق ما عاهد الله عليه لكن الحربة الغادرة كانت له بالمرصاد لكنها فتحت أمام بطولته أبواب الجنة بينما كانت النار مثوى لأعدائه ومصيرا لقاتليه ،

أما ضرار فينكر علي كعب البكاء والحزن لمصرع إخوانه لأن موتهم شفي أنفسا موتورة ، حيث نكبت في يوم بدر برؤوس الكفر وصناديد قريش ، ويتمني لو كان عتبه بن ربيعة وعمرو بن هشام أحياء كي يشتفوا بقتلي أحد عن صرعي بدر ، وبالنصر الحالي عن الهزيمة السابقة ، ولكن هيهات فمن أخطاته سيوف الإسلام لن يخطئه لهيب النار ،

وإذا كانت الأبيات السابقة لكعب تدور في إطار من الحزن والرثاء لقتلي المسلمين فإن الأبيات التالية لابن الزبعرى تشيع فيها روح الشماتة ونغمة الزهو بالنصر المزعوم في أحد يقول :

ألا ذرفت من مقلتيك دموع	وقد بان من حبل الشباب قطوع
وشط بمن تهوي المزار وفرقت	نوى الحي دار بالحبيب فجوع
وليس لما ولي علي ذي حرارة	وإن طال تذراف الدموع رجوع
فذر ذا ولكن هل أتي أم مالك	أحاديث قومي والحديث يشيع
ومجنبنا جردا إلي يثرب	عناجيج منها متلد ونزيع
عشية سرنا في لهام يقودنا	ضرور الأعادي للصديق نفوع
نشد علينا كل زعف كأنها	غدير بضوج الواديين نقيع
فلما رأونا خالطتهم مهابة	وعاينهم أمر هناك فظيع
وودوا لو أن أرضا ينشق ظهرها	بهم وصبور القوم ثم جزوع

وقـد عـريت بيض كأن وميضها حريق ترقي في الإباء سريع
فغادرن قتلي الأوس عاصية بهم ضباع وطير يعتفين وقوع
وجمع بني النجار في كل تلعة بأبدانـهم مـن وقعهن نجيع
ولولا علو الشعب غادرن أحمدا ولكن علا والسمهري شروع
كما غادرت في الكر حمزة ثاويا وفي صدره ماضي الشباة وقيع
ونعمان قد غادرن تحت لوائه علي لـحم طير لم يحفن وقوع
بأحد وأرماح الكمـاة يردنـهم كما غال أشطان الدلاء نزوع

فأجابه حسان بن ثابت بقصيدته التي يقول فيها :

أشـاقك مـن أم الوليد ربـوع بلاقـع ما من أهلهن جميـع
عفاهن صيفي الرياح وواكف من الدلو رجاف السحاب هموع
فلـم يبق إلا موقد النار حوله رواكـد أمثـال الحمام وقـوع
فـدع ذكـر دار بددت بين أهلها نـوى لمتينات الحبال قطـوع
وقـل إن يكـن يوم بأحد يعده سفيه فإن الحق سوف يشيع
فقد صابرت فيه بنو الأوس كلهم وكـان لهم ذكـر هناك رفيع
وحامي بنو النجار فيه وصابروا وما كان منهم في اللقاء جزوع
أمـام رسول الله لا يخذلونه لـهم ناصر من ربهم وشفيع
وفوا إذ كفرتـم يا سخين بربكم لا يستوي عبد وفي ومضيـع
بأيديـهم بيض إذا حمش الوغى فلابد أن يردي لـهن صريع
كما غادرت في النقع عتبة ثاويا وسعدا صريعا والوشيج شروع (١)
قد غادرت تحت العجاجة مسندا أبيا وقـد بل القميص نجيع

---

(١) سمام : جمع سم ، تلعة : مرتفعة ، واكف : صفة للمطر ، الدلو : برج من أبراج السماء ، سخين : كلمة تسب بها قريش وأصل السخينة أكلة يدخلها لحم الخنزير .

بكف رسول الله حين تنصبت علي القوم مما قد يـثرن نقوع
أولئك قوم سادة من فروعكم وفي كل قوم سادة وفروع
بهـن نعز الله حتى يعـزنا وإن كان أمر يا سخين فظيــع
فلا تذكروا قتلي وحمزة فيهم قتيل ثوى لله وهو مطيــع
فــإن جنان الخلد منزلة له وأمر الذي يقضي الأمور سريع
وقتلاكم في النار أفضل رزقهم حميم معا في جوفها وضريع (١)

فابن الزبعرى يطيب له هذا السرد الكريه لأحداث تلك الموقعة المشئومة مذ تجمعت الجموع وهبت القبائل صوب المدينة تحدوهم مشاعر الحقد الأسود والضغينة الهوجاء علي الإسلام ورسوله ، وهنا يزعم الشاعر أنهم أوقعوا الرعب في القلوب ولا غرابة فهو لم يذق بعد طعم الإيمان الذي يحيل البلية عطية والمحنة منحة ويجري علي ألسنة المؤمنين في مثل هذا الموقف العصيب قول الله سبحانه : (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) ثم تعلو نبرة السخرية والشماتة مع تعديد الشاعر لأسماء الشهداء لكنه التخليد لهذه الشخصيات الباسلة والتسجيل لبطولتهم في أنصع صفحات التاريخ ، ويأتي رد حسان متتبعا بالنقض كل المزاعم فيعمد إلي قلب المعاني التي ذكرها شاعر الكفار فبنو الأوس وإخوانهم من الخزرج إنما يذكر لهم الصبر علي الجهاد ، ومصابرتهم للأعداء دون تردد أو استسلام أو تخاذل ، ولقد نجح الشاعر عن طريق الموازنة أن يميز بين مسلك الكفار وصنيع المؤمنين ، فالمسلمون وفوا بعهد الله وعهد رسوله فآمنوا وصبروا وصابروا وعزوا فاستحقوا الجنة ، بينما كفر عداؤهم وخانوا الله ورسوله فذلوا وطعموا الزقوم والضريع في أسافل النيران .

---

(١) السيرة النبوية ٢ / ٧٥

ولم تكن المساجلات في هذه المعركة قصرا علي الشعراء من الرجال فقد أدلت الشواعر من النساء فيها بدلوهن وبخاصة هند بنت عتبة (*) التي كانت خسارتها فادحة في بدر بسبب فقدها لذويها علي يد بطل الإسلام حمزة بن عبد المطلب ومن ثم جعلته طلبتها وأقصي غايتها في أحد ، وبعد أن ظفرت بجثمانه ومثلث به صعدت علي صخرة مشرفة وصرخت بأعلى صوتها تشفيا بحمزة :

نحن جزيناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان عن عتبة لي من صبر ولا أخي وعمه وبكري
شفيت نفسي وقضيت نذري شفيت وحشي غليل صدري
فشكر وحشي علي عمري حتى ترم أعظمى في قبري

فانبرت لها من شواعر المسلمين هند بنت أثاثة بن عباد (*) فقالت :

خزيت في بدر وبعد بدر يا بنت وقاع عظيم الكفر
صبحك الله غداة الفجر ملها شميين الطوال الزهر
بكل قطاع حسام يفري حمزة ليثي وعلي صقري
إذ رام شيب وأبوك غدري فخضبا منه ضواحي النحر

ونذرك السوء فشر نذر (١)

فهند بنت عتبة تظهر الشماتة وتبدى الفرحة التي غمرتها حين أدركت ثأرها من حمزة علي يد وحشي ، فلا غرابة أن تظهر في أبياتها الكثير من معاني الشكر والامتنان لهذا القاتل الأثيم ،

---

(١) السيرة النبوية ٢ / ٩٥

(*) هند بنت عتبه بن ربيعه بن عبد شمس بن عبد مناف صحابية قرشية عالية الشهرة وهي أم معاوية بن أبي سفيان تزوجت أباه بعد مفارقتها لزوجها الأول الفاكه بن المغيرة المخزومي كانت خصيمة جريئة صاحبة رأي وحزم ، تقول الشعر الجيد وأكثر ما عرف من شعرها ومراثيها لقتلي بدر من مشركى قريش قبل أن تسلم يوم الفتح ماتت سنة ١٤ .

أما هند بنت أثاثة فتستمطر عليها غضب الله إذ كيف تشمت بقتل بطل جسور مسلم كحمزة مقابل غادر خائن كعتبه أو شيبة ، ثم تتوعدها بيوم قريب يثأر فيه الهاشميون لحمزة الذي قتله الكفار غدرا وخيانة ٠

ويقول أبو سفيان بن حرب (*) قائد المشركين مشتفيا بقتلي المسلمين في أحد :

وسلي الذي قد كان في النفس إنني قتلت من النجار كل نجيب
ومن هاشم قرما كريما ومصعبا وكان لدي الهيجاء غير هيوب
ولو أنني لم أشف نفسي منهم لكان شجا في القلب ذات ندوب
فآبوا وقد أودي الجلابيب منهم بهم خدب من معطب وكئيب
أصاب بهم من لم يكن لدمائهم كفاء ولا في خطة بضريب (١)

فأجابه حسان بن ثابت قائلا :

هند بنت أثاثه بن عباد بن المطلب بن عبد مناف ، شاعرة قرشية ، اشتهرت في الجاهلية ، وروي لها ابن إسحاق أبياتا وهي علي الشرك في رثاء عبيدة بن الحارث بن المطلب أحد قتلي بدر ، أسلمت بعد بدر ماتت سنة ١٠ هجرية ٦٣١ ميلادية

أبو سفيان صخر بين حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الأموى القرشي ، هو والد معاوية ويزيد وعتبه وإخوتهم ولد قبل الفيل بعشر سنين ، وكان من أشراف قريش في الجاهلية ، وكان تاجرا يجهز التجار بماله وأموال قريش إلي الشام وغيرها وكان يقال أفضل قريش في الجاهلية رأيا ثلاثة : عتبه وأبو جهل وأبو سفيان ،أسلم يوم الفتح وشهد مع الرسول حنينا وأعطاه من غنائمها مائة بعير وأربعين أو قيه مات سنة ٣٣ في خلافة عثمان عن ثمان وستين سنه ص ١٦٨٠ الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر تحقيق علي محمد البجاوى المجلد الرابع دار الجيل بيروت أولي ١٩٩٢

(١) الجلابيب : يقصد المهاجرين ، الخدب : الطعن النافذ ، المعطب الذي يسيل دمه ، أقصدت : أصبت ، الخضيب : الدم الطري ٠

ذكرت القروم الصيد من آل هاشم ولسـت لزور قلته بمصيب
أتعجب أن أقصدت حمزة منهم نجيبا وقد سميته بنجيب
ألم يقتلوا عمرا وعتبة وابنه وشيبة والحجاج وابن حبيب
غداة دعا العاصي عليا فراعه بضربة عضب بله بخضيب

فأبوا سفيان يفخر بأنه انتقم من بني هاشم ومن بني النجار أخوال الرسول من الخزرج ، ويعير المسلمين بهزيمتهم ،وغلبة معسكر مكة إياهم ،وقد رد عليه حسان بأن حمزة لم يضع دمه هدرا ، فقد سبق أن قتل المسلمون في بدر جماعة من عظماء قريش ، والشاعران يتحدثان بمعان جاهلية (١)

صفوة القول :

إن غزوة أحد وإن كان تأثيرها سلبيا علي الناحية العسكرية إلا أنها لقنت المسلمين درسا مؤداه وجوب الطاعة المطلقة لأوامر الله عز وجل وتعاليم النبي (ﷺ) وأن شعار المسلم في كل زمان ومكان ينبغي أن يكون (سمعنا وأطعنا) ولم يتخلف الشعر عن تسجيل أحداث هذه الموقعة بكل دقائقها وتفاصيلها ، سواء في ذلك ما شهدته من جموع مؤمنة وحشود كافرة وما سجلته من بطولات وما سقط فيها من شهداء خلدهم الشعر ورثاهم الشعراء وبكاهم التاريخ.

---

(١) الشعر في عصر النبوة والراشدين ٢٧٥

المساجلات الشعرية في غزوة الخندق

تعد غزوة الخندق حلقة من حلقات الصراع الدائر بين المسلمين في المدينة وأعدائهم في مكة وما حولها من القبائل العربية التي تألبت علي الرسول وتآمرت علي المسلمين بفعل الغدر اليهودي ، وسرعان ما سمع الرسول بخروج أولئك الأحزاب فاستشار أصحابه فأشار عليه سلمان رضي الله عنه بحفر الخندق ، أما المشركون فقد فوجئوا بالخندق حينما وصلوا إليه فعسكروا حوله يحاصرون المسلمين وسرعان ما ارتدوا علي أعقابهم منهزمين حيث أرسل الله عليهم ريحا هوجاء في ليلة مظلمة باردة قلبت قدورهم واقتلعت خيامهم وكفي الله المؤمنين القتال (١) وعلي الرغم من رجوع الكفار مدحورين فقد انبري شعراؤهم يلفقون الأكاذيب ويدعون البطولة ، يقول ضرار بن الخطاب :

ومشفقة تظن بنا الظنونا ... وقد قدنا عرندسة طحونا
كأن زهاءها أحد إذا ما ... بدت أركانه للناظرينا
تري الأبدان فيها مسبغات ... علي الأبطال واليلب الحصينا
وجردا كالقداح مسومات ... نؤم بها الغواة الخاطئينا
كأنهم إذا صالوا وصلنا ... بباب الخندقين مصافحونا
أناس لا تري فيهم رشيدا ... وقد قالوا ألسنا راشدينا
فاحجرناهم شهرا كريتا ... وكنا فوقهم كالقاهرينا
نراوحهم ونغدو كل يوم ... عليهم في السلاح مدججينا
بأيدينا صوارم مرهفات ... نقد بها المفارق والشئوونا
كأن وميضهن معربات ... إذا لاحت بأيدي مصلتينا (٢)

---

(١) ينظر فقه السيرة للبوطي ٢١٨، عرندسة : شديدة ويقصد بها الكتيبة ، اليلب : الدروع اليمانية ، الشؤون : مجمع العظام من الرأس .

وميـض عقيقة لمعت بليل ... تري فيها العقائق مستبينـــا
فـلولا خنـدق كـانوا لديه ... لـدمـرنا عليهم أجمعينـــا
ولكـــن حـــال دونهم وكانوا ... بـــه مـن خوفنا متعوذينـــا
فـــإن نرحـــل فإنا قد تركنا ... لـدي أبياتكم سعدا رهينـــا
إذا جن الظلام سمعت نوحي ... علـي سعد يرجعن الحنينـا
وسوف نزوركـم عما قريب ... كمـا زرناكـم متوازريـــنا
بجمع من كنانة غير عزل ... كأسد الغاب قد حمت العرينا

واضطلع بالرد عليه كعب بن مالك فأجابه قائلا :

وسائـلـه تسائل مـا لـقينـا ... ولـو شهدت رأتنا صابرينا
صبـرنا لا نـري لله عـدلا ... علـي مـا نابنـا متـوكلينا
وكان لنا النبي وزيـر صدق ... بـه نعلو البرية أجمعينـا
نقـاتل مـعشرا ظلموا وعقوا ... وكـانوا بالعداوة مرصدينـا
نعـاجلـهم إذا نهـضوا إلينا ... بضرب يعجل المتسرعينـا
ترانا في فضافض سابغات ... كغـدران الملا متسربلينا
وفي إيمانـنـا بيض خفـاف ... بها نشفي مراح الشاغبينـا
ببـاب الخـندق كـأن أسدا ... شوابكـهن يحمين العرينا
فوارسنـا إذا بكروا وراحوا ... علي الأعداء شوسا معلمينا
لننـصر أحـمدا والله حتى ... نكون عباد صدق مخلصينا
ويعلم أهل مكة حين ساروا ... وأحـزاب أتـوا متـحزبينا
بأن الله ليس لـــه شريك ... وأن الله مـولي المؤمنينا
فـإمـا تقتلوا سعدا سفاها ... فإن الله خـير القـادرينـا (١)

---

(١) شوسا : الشوس من ينظرون بطرف العين .

سيـدخله جـنانا طيبـات تكون مقامة للصالحينـــا
كمـا قـد ردكم فلا شريدا بغيظكـم خـزايا خائبينـــا
خزايا لـم تنالوا ثم خيرا وكدتم أن تكونوا دامرينـا
بريح عاصف هبت عليكم فكـنتم تحتـها متكمهينـا (١)

وليس أكذب من ضرار في هذه القصيدة ، ذلك أنه يزدهي بنصر لم يتحقق ، ويتفاخر ببطولة لم تظهر ، وليس أدل علي ذلك من أن المواجهة المباشرة لم تقع ، والالتحام بين الجيشين لم يحدث ، وعلي هذا النحو من الكذب والادعاء يمضي الشاعر في سرد أباطيله وتصوير القوة المكذوبة لهذه الكتيبة القرشية الباغية وجنودها الطغاة الذين أوقعوا الرعب في قلوب المسلمين حين أحاطوا بهم محاصرين مهددين ، وبسلاح البغي والعداوة مدججين ، ناسيا أن يقين المسلم لا يهي في الأزمات ، وأن إيمانه لا يزيغ لدي الشدائد ، (الذين قال لهم الناس أن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم) ،

أما كعب بن مالك فإنما ينطلق في أبياته متغنيا بالصبر الذي حمل لواءه المسلمون في ذلك الحصار الغاشم وتلك الموقعة الحاسمة إيمانا واحتسابا للأجر عند الله واقتداء وامتثالا لأوامر النبي ﷺ الذي ضرب أروع المثل في الشجاعة والإباء والصبر علي ملاقاة الأعداء حتي تكون كلمة الله هي العليا أما ما يتشدق به الأعداء من قتلهم سعد بن معاذ فهو دليل جهل بما أعده الله نزلا للشهداء في جنة عرضها السماوات والأرض ٠

ومن الظواهر المبتكرة في إطار المساجلات الإسلامية اشتراك أكثر من شاعرين في الرد علي القصيدة الأولي تماما كما فعل حسان بن ثابت وكعب بن مالك حين اضطلعا

---

(١) السيرة النبوية ٢ / ١٦٠، فلا : الفل : الكسر ، متكمهينا ، الأكمه من ولد أعمي ٠

بالرد علي قصيدة عبد الله بن الزبعري في يوم الخندق التي يقول فيها :

حي الديار محا معارف رسمهـا طول البلي وتراوح الأحقـــاب
فكأنما كتب اليـهود رسومهـا إلا الكنيف ومعقد الأطنـــاب
فـقرا كـأنك لـم تكن تلهو بها في نعمـــة بـأوانس أتـراب
فاترك تذكر ما مضي من عيشة ومـحلـة خلـق المقـــام يبـاب
واذكر بلاء معاشر وأشكرهم ساروا بأجمعـهم مـن الأنصاب
أنصـاب مكة عـامـدين ليثـرب فـي ذي غيـاطل جحفل جبجاب
يدع الحزون مناهجا معلومـة فـي كـل نـشر ظاهر وشعاب
فيها الجياد شوازب مجـنوبة قـب البطون لـواحق الأقراب
مـن كـل سلهبة وأجرد سهلب كـالسيـد بادر غفـلة الـرقاب
جـيش عيينـة قـاصد بلوائه فيـه وصـخر قـائد الأحـزاب
قـرمان كالبدرين أصبح فيهما غيث الفقـير ومـعقل الهراب
حتى إذا وردوا المدينة وارتدوا للـمـوت كـل مجرب قضـاب
شهرا وعشرا قاهرين محمدا وصحابه في الحرب خير صحاب
نادوا برحـلتهم صبيحة قلتم كـدنا نكـون بها مـع الخياب
لولا الخنادق غادروا من جمعهم قتـلي لطير سغب وذئـــاب (١)

فيجيبه حسان بن ثابت قائلا :

هل رسم دراسة المـقام يباب مـتكـلم لـمحـاور بـجواب
قفر عفا رهم السحاب رسومة وهـبوب كـل مـطلة مـرباب

---

(١) الكنيف : حظيرة الماشية ، معقد الأطناب : موضع عقد الحبل الذي يشد به الخيام ،غياطل : أصوات ، جبجاب : كثير الأرض ، الحزون : ما غلظ من الأرض ، المناهج : الطرق ، نشز : ماارتفع من الأرض ، الشعب : ماانخفض من الأرض ، الشوازب : الضامرة ، قب البطون: مرتفعة ، الأقراب : الخواصر ، سلهبة : طويلة ، رهم : مطر ، مرباب : ثابتة ودائمة .

ولقد رأيت بها الحلول يزينهم بيـض الوجـوه ثواقب الأحساب
فـدع الديار وذكر كل خريدة بيـضاء آنسة الـحديث كـعاب
واشك الهموم إلي الإله وما تري من معشر ظلموا الرسول غضاب
سـاروا بأجـمعهم إليه وألبوا أهـل القرى وبوادي الأعـراب
جيش عيينة وابن حرب فيهم متـخمـطون بحلبـة الأحـزاب
حتى إذا وردوا المدينة وارتجوا قـتل الـرسول ومـغنم الأسلاب
وغـدوا علينا قادرين بأيـدهم ردوا بغيـظـهـم علي الأعـقاب
بهبوب معصفة تفرق جمعهم وجنـود ربك سيـد الأربـــاب
فكفي الإله المـؤمنين قتالهـم وأثابهـم فـي الأجر خير ثواب
من بعد ما قنطوا ففرق جمعهم تـنـزيل نـصر مـليكنـا الوهاب
وأقـر عيـن مـحمـد وأصحابه وأذل كـل مكـذب مـرتـاب
عاتي الفؤاد موقع ذى ريبة في الكفر ليس بطاهر الأثواب
علـق الشقاء بقلبـه ففـؤاده فـي الكـفـر آخر هذه الأحقاب

ويجيبه كعب بن مالك أيضا قصيدته التي استهلها بقوله :

أبقـي لنـا حـدث الحروب بقية مـن خـير نحلة ربنا الوهاب

وفيها يقول واصفا استعداد المسلمين لملاقاة أعدائهم :

يغدون بالزعف المضاعف شكة وبمترصات في الثقات صئـاب
وصوارم نزع الصياقل غلبها وبكـل أروع مـاجد الأنسـاب
يـصـل اليمين بمارن متقارب وكـلـت وقيـعتـه إلي خبـاب
وأغـر أزرق فـي القناة كأنه في طخية الظلماء ضوء شهاب

---

(١) متخمطون : الخمط شجر لـه شوك متداخل ، الزعف : القاتلـة ، مترصـات : قويـات ، صئاب : ممتلئة ، مارن : لين في صلابة ، خباب : عبد صانع السيوف ،القران : قرن الجبل اعلاه ، قتير: غبرة .

وكـتيبـة ينـفـي القـران قتيرها وتـــرد حـد قـواحـز النـشاب
جـأوى ململمـة كـأن رماحها فـي كـل ملحمة صريمة غاب
تـأوي إلـي ظـل اللـواء كأنه فـي صـعدة الخطي فيء عقاب
أعـيت أبا كـرب وأعيت تبعا وأبـت بسـالتها علـي الأعراب
ومـواعظ مـن ربنـا نهدي بها بلـسـان أزهـر طـيب الأثواب
عـرضت عـلينا فاشتهينا ذكرها من بعد ما عرضت علي الأحزاب
حكما يراها المجرمون بزعمهم حـرجـا ويفـهمـها ذوو الألباب
جـاءت سـخينـة كي تغالب ربها فـلـيـغلـبن مـغالب الـغـلاب (١)

والشعراء الثلاثة ينهجون نهجا واحدا من حيث التقديم واستعراض المهارات اللفظية والعودة إلي منابع اللغة لانتقاء ما يعبر عن الرؤية الشعرية بيد أن ابن الزبعري وإن برع في تصوير الجيش وزحفه نحو المدينة وبراعة قواده ، وصلابة رواحله ، وقوة أسياقه فإن بيته الأخير يظل بمنأى عن الصدق وحسبنا قوله :

نادوا برحلتـهم صبيحة قلتم كدنا نكون بها مع الخياب

دليلا علي ما مني به جيش الأحزاب من الهزيمة والخسران ، وأما حسان فقد تخلص إلي غرضه شاكيا إلي الله قريشا التي ألبت القرى وحشدت الأعراب لمحاربة النبي لكن جند الله كانت لهم بالمرصاد وكفي الله المؤمنين القتال ،

ويسير كعب علي درب حسان في الالتزام بالتعاليم الإسلامية السمحة في مخاطبة الأعداء ومجابهة الخصوم والإشادة بأبطال الإسلام وسيوفهم الصارمة وبطولتهم الفذة وحسبنا في الاعتراف بفضله والإقرار ببسالته قوله :

جاءت سخينة كي تغالب ربها فـلـيـغلبن مـغالب الـغلاب

ويكفي قول الرسول ﷺ تعليقا علي هذا البيت : لقد شكرك الله يا كعب علي قولك هذا

---

(١) السيرة ٢ / ١٦٢، ، قواحز النشاب : قوية الاظفار .

ومما يتصل بغزوة الخندق ما لقيه بنو النضير وبنو قريظة من الإجلاء عن المدينة أما الأولون فلتآمرهم علي قتل النبي ﷺ وأما الآخرون فلغدرهم ونقضهم للعهود وخيانتهم لله ورسوله وتآمرهم علي المسلمين في أشد اللحظات حرجا وصعوبة (١) ومما قاله حسان بن ثابت في شأن بني قريظة :

تفاقد معشر نصروا قريشا ... وليس لهم ببلدتهم نصير
هم أوتوا الكتاب فضيعوه ... وهم عمي من التوراة بور
كفرتم بالقرآن وقد أتيتم ... بتصديق الذي قال النذير
فهان علي سراة بني لؤي ... حريق بالبويرة مستطير

فأجابه أبو سفيان بن الحارث فقال :

أدام الله ذلك من صنيع ... وحرق في طوائفها السعير
ستعلم أينا منها بنزه ... وتعلم أي أرضينا تضير
فلو كان النخيل بها ركابا ... لقالوا لا مقام لكم فسيروا

وأجابه جبل بن جوال التغلبي أيضا فقال باكيا بني النضير وبني قريظة :

ألا يا سعد بني معاذ ... لما لقيت قريظة والنضير
لعمرك أن سعد بني معاذ ... غداة تحملوا لهو الصبور
فأما الخزرجى أبو حباب ... فقال لقينقاع لا تسيروا
وبدلت المولي من حضير ... أسيدا والدوائر قد تدور
واقفرت للبويرة من سلام ... وسعية وابن اخطب فهي بور
وقد كانوا ببلدتهم ثقالا ... كما ثقلت بميطان الصخور
فإن يهلك أبو حكم سلام ... فلا رث السلاح ولا دثور

---

(١) ينظر : فقه السيرة للبوطي ٢٢٤

(٢) البويرة : مكان به نخيل لبني النضير ، ميطان : جبل بالمدينة .

وكـل الكاهنين وكان فيهـم مع اللين الخضارمة الصقور
وجدنا والمجد قد ثبتوا عليه بمـجـد لا تغيبــه البـدور
أقيموا يا سراة الأوس فيهـا كـأنكـم مـن المخزاة عـور
تركتم قدركم لا شيء فيهـا وقـدر القوم حـامية تفور (١)

وحسان ينكر علي أولئك الأقوام إهلاكهم أنفسهم بنصرتهم قريشا كما ينكر عليهم كفرهم بالقرآن برغم علمهم بأنه من عند الله ، ومن ثم فإن ما نزل بهم من الإجلاء والخراب إنما هو عقاب مستحق علي جرائم عديدة ، أما ضرار فلم يأت في أبياته بطائل بل لقد بهت فلم يجد جوابا شافيا أو حجة مقنعة باستثناء ما يطل من أبياته من وعيد هزيل وتهديد يائس، وشاعر اليهود يندب حظه ويبكي أهله ويلقي باللائمة علي سعد بن معاذ الذي حكم فيهم بحكم الله وحكم رسوله ويتحسر علي تلك البقاع التي غدت قفرا من أهلها بعد أن أجلاهم المسلمون عنها ، وينقم علي أهل المدينة إقامتهم مقام أدعياء الزعامة وأذناب البشر .

ومن النماذج النادرة التي توارد فيها أكثر من شاعرين علي حدث واحد قول عباس بن مرداس (*) حليف بني النضير مادحا إياهم :

ولو أن أهل الدار لم يتصدعوا رأيت خلال الدار ملهي وملعبا
فإنك عمري هل أريك ظعائنا سلكن علي ركن الشطاة فتيأبا

---

(١) السيرة النبوية ٢ / ١٧٠

العباس بن مرداس بن أبي عامر ويكني أبو الهيثم وهو من صحابة رسول الله (ﷺ) ومن المؤلفة قلوبهم ، وقد كان سيدا كريما أبيا وممن حرم الخمرفي الجاهلية ، وقد روي الحديث عن رسول الله (ﷺ) وكان من القواد في فتح مكة وغزوة حنين ، وكان فارسا مغوارا وشاعرا مخضرما شديد العارضة والبيان سيدا في قومه مطاعا فيهم عاتبه رسول الله فقال له (أتقول في الشعر) فاعتذر وقال بأبي أنت وأمي إني لأجد للشعر دبيبا علي لساني كدبيب النمل فتبسم النبي وقال : (لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين) الشطاة وتياب : موضعان ،

علـيهـم عين مـن ظباء تبالة أوانس يصبين الحليم المجربا
إذا جاء باغي الخير قلن فجاءة لـه بوجوه كـالدنانير مرحبا
وأهلا فلا ممنوع خير طلبته ولا أنت تخشي عندنا أن تؤنبا

فأجابه من الجبهة الإسلامية خوات بن جبير فقال له :

تبـكي علي قتلي يهود وقد تري من الشجو لو تبكي أحـــب وأقربا
فـهـلا عـلي قتلي ببطن أرينق بكيت ولم تعول من الشجو مسبها
إذا السلم دارت في صديق رددتها وفي الدين صدادا وفي الحرب ثعلبا
عـمـدت إلي قدر لقومك تبتغي لـهـم شنهـا كيمـا تعـز وتغلبـــا
فإنك لما أن كلفت تمدحـــــا لمـن كان عيبـا مدحـه وتكـذبـــا
رحـلـت بأمـر كنـت أهلا لمثله ولـم تلـف فيهم قائلا لك مرحـــا
فـهـلا إلـي قـوم ملوك مدحتهم تبنـوا مـن العز المؤثل منصـــا
إلـي معشر سادوا ملوك وكرموا ولم يلف فيهم طالب العرف مجدبـا
أولئك أحـرى مـن يهود بمدحه تراهم وفيهم عـزة المجد ترتبـا

ثم يعاود عباس بن مرداس النظم علي القافية نفسها فيقول :

هجوت صريح الكاهنين وفيكـم لـهـم نعم كانت من الدهر ترتبا
أولئك أخري لو بكيت عليهم وقومك لو أدوا من الحق موجبا
من الشكر إن الشكر خير مغبة وأوفق فعلا للذي كان أصوبا
فكنت كمن أمسي يقطع رأسه ليبـلغ عزا كان فيه مـركبـــا
فبك بني هارون واذكر فعالهم وقتلهـم للجوع إذ كنت مجدبا

المسهب : المتغير الوجه ، بطن ارينق : موضع ، ترتب : الشيء الثابت المستقر ، نكب : ابعد ، الكاهنان : قريظة والنضير .

أخوات أذر الدمع بالدمع وأبكهم وأعرض عن المكروه منهم ونكبا
فإنك لو لاقيتهم في ديارهم لألفيت عما قد تقول منكبا
سراع إلي العليا كرام لدي الوغى يقال الباغي الخير أهلا ومرحبا

فيجيبه كعب بن مالك فيقول :

لعمري لقد حكت رحى الحرب بعدما أطارت لؤيا قبل شرقا ومغربا
بقية آل الكاهنين وعزها فعاد ذليلا بعد ما كان أغلبا
فطاح سلام وابن سعيه ع نوة وقد ذليلا للمنايا ابن أخطبا
وأجلب يبغي العز والذل يبتغي خلاف يديه ما جني حين أجلبا
كتارك سهل الأرض والحزن همة وقد كان ذا فى الناس أكدى وأصعبا
وشأس وعزال وقد صليا بها وما غيبا عن ذاك فيمن تغيبا
وعوف بن سلمي وابن عوف كلاهما وكعب رئيس القوم حان وخيبا
فبعدا وسحقا للنضير ومثلها أن أعقب فتح أو إن الله أعقبا (١)

فهذه مناظرة متعددة الأطراف ، وقد بدأها عباس بن مرداس قبل إسلامه باكيا أطلال قومه نادبا أمجادهم الزائلة ، فينكر عليه الشاعر المسلم بكاء قتلي اليهود ويوجهه إلي امتداح المسلمين فهم بلا ريب أولي بالمدح وأجدر بالسيادة ، ثم يعود بن مرداس فيذكر شاعر المسلمين بما كان لليهود عليهم من أياد تستوجب مدحهم والثناء عليهم ، ويختم كعب تلك المناظرة مبتهجا بنصر الإسلام وظهور الحق واستئصال شأفة اليهود .

---

(١) السيرة النبوية ٢ / ١١٧ ، ١١٨

المساجلات الشعرية بعد الفتح

يعد فتح مكة نهاية للصراع الذي دارت رحاه سنوات عديدة بين المعسكرين المكي والمدني ، وإيذانا بالنصر المبين الذي أيد الله به بطل الإسلام محمدا(ﷺ) ، وبداية لمرحلة جديدة انتشر فيها الإسلام بفضل هذا الجيل الراشد من أصحاب النبي في كل أرجاء الجزيرة العربية ، وإذا كان قدوم الوفود إلي المدينة من أهم مظاهر النصر حينئذ فإنه يعد نهاية عهد الشعر الإسلامي بالمساجلات التي اختتمها حسان بن ثابت بقصيدته العينية التي نسجها للرد علي شاعر بني تميم ، وتعد مناسبة هذه القصيدة من الأمور التى أضفت عليها نوعا من الإجلال والتقدير لأنها ارتبطت بشخص الرسول الكريم وصحابته الأبرار وآل بيته الكرام ، فضلا عن تزامنها مع نزول إحدى سور القرآن الكريم وهى سور الحجرات التى تحمل فى طياتها كثيرا من قيم الإسلام وتعاليمه وآدابه ،

وبيان ذلك أن وفد بنى تميم قدم على الرسول فى عام الوفود بعيد فتح مكة وكان هذا الوفد يضم سبعين رجلا من أشراف القبيلة وسادات العرب ومنهم الأقرع بن حابس التميمى والزبرقان بن بد ر وعطارد بن حاجب بن زرارة وعيينة بن حصن وقيس بن عاصم وعمرو بن الأهتم وغيرهم فلما دخل الوفد المسجد النبوى نادوا رسول الله من وراء حجراته : أن اخرج إلينا يا محمد ، فآذى ذلك رسول الله (ﷺ) فخرج إليهم فقالوا يا محمد جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا ، قال : قد أذنت لخطيبكم فليقل : فقام عطارد بن حاجب فقال : (الحمد لله الذى له علينا الفضل والمن وهو أهله ، الذى جعلنا ملوكا ووهب لنا أموالا عظاما نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثره عددا وأيسره عدة فمن مثلنا فى الناس ، ألسنا برؤوس الناس وأولى فضلهم ، فمن فاخرنا فليعدد مثل ما عددنا وإنا

لو نشاء لأكثرنا الكلام ، ولكنا نستحى من الإكثار فيما خولنا الله وأعطانا ، أقول قولى هذا فأتوا بقول أفضل من قولنا أو أمر أبين من أمرنا ثم جلس ،

فقال رسول الله (ﷺ) لثابت بن قيس بن الشماس: أخى بنى الحارث بن الخزرج قم فأجب الرجل فى خطبته ، فقام ثابت فقال : الحمد لله الذى السماوات والأرض خلقه ، قضى فيهن أمره ووسع كرسيه علمه ، ولم يكن شىء قط إلا من فضله ، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكا واصطفى من خير خلقه رسولا ، أكرمه نسبا ، وأصدقه حديثا ، وأفضله حسبا ، فأنزل عليه كتابه ، وائتمنه على خلقه ، فكان خيرة الله من العالمين ، ثم دعا الناس إلى الإيمان به ، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوى رحمه ، أكرم الناس حسبا ، وأحسن الناس وجوها وخير الناس فعالا ثم كان أول الخلق إجابة ، واستجاب لله حين دعاه رسول الله (ﷺ) نحن ، فنحن أنصار الله ، ووزراء رسوله ، فقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه ، ومن كفر جاهدناه فى الله أبدا ، وكان قتله علينا يسيرا ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم وللمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم ٠

ثم أذن الرسول لشاعرهم الزبرقان بن بدر فقال :

نحن الكرام فلا حى يعادلنا ... منا الملوك وفينا تنصب البيع

فكم قسرنا من الأحياء كلهم ... عند النهاب وفضل العز يتبع

ونحن نطعم عند القحط مطعمنا ... من الشواء إذا لم يؤنس القزع

بما ترى الناس تأتينا سراتهم ... من كل أرض هويا ثم نصطنع

فننحر الكوم عبطا فى أرومتنا ... للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا

فلا ترانا إلى حى نفاخرهم ... إلا استفادوا فكانواالرأس يقتطع

فمن يفاخرنا فى ذاك نعرفه ... فيرجع القوم والأخبار تستمع

إنا أبينا ولا يأبى لنا أحد ... إنا كذلك عند الفخر نرتفع

وكان حسان غائبا فبعث إليه رسول الله (ﷺ) ، يقول حسان فلما انتهيت إلى رسول الله (ﷺ) وقام شاعر القوم فقال ما قال طلب منى النبى أن أجيبه قائلا : قم يا حسان فأجب الرجل فيما قال ، فكانت هذه القصيدة وحين فرغ حسان من إنشادها قال الأقرع بن حابس : والله إن هذا الرجل لمؤتى له ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا فأسلموا جميعا وحسن إسلامهم ،

يقول حسان :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أوحاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
سجية تلك فيهم غير محدثة إن الخلائق– فاعلم– شرها البدع
إن كان فى الناس سباقون قبلهم فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا
إن سابقواالناس يوما فاز سبقهم أو وازنوا أهل مجد بالندى متعوا
ولا يضنون عن مولى بفضلهم ولا يدنسهم فى مطمع طبع
لا يجهلون وإن حاولت جهلهم فى فضل أحلامهم عن ذاك متسع
أعفة ذكرت فى الوحى عفتهم لا يطمعون ولا يرديهم الطمع
كم من صديق لهم نالوا كرامته ومن عدو عليهم جاهد جدعوا
خذ منهم ما أتى عفوا إذاغضبوا ولا يكن همك الأمر الذى منعوا
فإن فى حربهم فاترك عداوتهم شرا يخاض عليه الصاب والسلع
لا فخر إن هم أصابوا من عدوهم وإن أصيبوا فلا خور ولا جزع
كأنهم فى الوغى والموت مكتنع أسد ببيشة فى أرساغها فدع
أعطوانبي الهدى والبر طاعتهم فما ونى نصرهم عنه وما نزعوا
إن قال سيرواأجدوا السيرجهدهم أوقال عوجواعلينا ساعة ربعوا

ما زال سيرهم حتى استقاد لهم أهل الصليب ومن كانت له البيع
نسموا إذا الحرب نالتنا مخالبها إذا الزعانف من أظفارها خشعوا
إذا نصبنا لقوم لا ندب لهم كما يدب إلى الوحشية الذرع
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم إذا تفرقت الأهواء والشيع
أهدى لهم مدحى قلب يؤازره فيما يحب لسان حائك صنع
فإنهم أفضل الأحياء كلهم إن جد بالناس جد القول أوشمعوا(١)

بهذه القصيدة يتولى حسان بن ثابت الرد على شاعر بنى تميم دون أن يفتخر بنفسه أو يتباهى بحسبه ونسبه ، وإنما يفتخر بالجماعة المؤمنة ، وبالبشير النذير وآل بيته الأطهار وصحابته الأخيار سواء فى ذلك المهاجرون والأنصار ، وكأنى بحسان يريد أن يلقن هذا الشاعر ونظراءه من المتعاظمين فى كل زمان ومكان درسا مؤداه : من أراد الفخر فالطريق ههنا ، ومن أراد المباهاة فلله العزة ولرسوله وللمؤمنين ،

وشاعر بنى تميم إنما جاء مفاخرا بقومه معتدا بمنزلتهم رافعا من شأنهم جامعا لهم ما شاء من صفات العز والكرم على عادة الجاهليين فى المدح والفخر ، فإذا بحسان يضرب صفحا عن تلك التقاليد البالية ويشرع فى إرساء الدعائم الجديدة للمدح والفخر الإسلاميين ، ذلك أنه لم يمدح الرسول وصحابته بالكرم والشجاعة فحسب وإنما أضاف بعدا جديدا نابعا من معطيات الدين وهدى الإسلام ، وبيان ذلك أنه جعل التقوى والعمل الصالح على رأس ما أورده من صفات المهاجرين والأنصار انطلاقا من المنهج الإسلامى الخالد (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وليس هذا فحسب وإنما جعل التقوى منطلقا للعد يد من الصفات الحسية والنفسية التى امتدح بها الصحابةالكرام كالشجاعة والإقدام والعزة والإباء والحلم والكرم

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤٠٠ وما بعدها باختصار

والعفة والتواضع ٠٠٠ إلخ مما يدل على أن حسانا لم يكتف بتغيير مضمون القصيدة العربية ووضع معايير إسلامية للمدح والفخر وإنما اضطلع بثورة شاملة تمثل خطوة جديدة نحو تطوير الشعر العربى والارتقاء به على نحو يخدم الشعر والدين فى وقت معا ، ولعل مما يؤكد تلك الرؤية أن الشاعر بعد أن أشاد بما يتصف به الصحابة من التقوى وطاعة الله عز وجل وما ينبثق عنها من صفات ،نراه يتبع ذلك بالتغنى بطاعتهم لرسول الله (ﷺ) ابتداء من قوله :

أعطوا نبى الهدى والبر طاعتهم فما ونى نصرهم عنه وما نزعوا

إيذانا وتنويها بهذين الركنين الأساسيين فى الدين الإسلامى ألا وهما طاعة الله عز وجل وطاعة رسوله(ﷺ) وحرصا على الانطلاق منهما فى كل اتجاهات الأدب ومنادح القول وأغراض الشعر ٠

الخصائص الفنية للمساجلات الشعرية

أولا : البناء الفني : تنحصر المساجلات الشعرية من حيث منهجها وبنائها الفني في عدد من الأبنية أظهرها ما يلي :

المنهج التقليدى ويقصد به تر سم الشعراء لطريقة الجاهليين فى بناء قصائدهم بحيث تبدأ القصيدة بالغزل أو الوقوف على الأطلال ثم وصف الرحلة والراحلة ، ثم الخلوص إلى الغرض الأصلى ، ثم الختام الذى يطلق فيه الشاعر طائفة من أبيات الحكمة النابعة من خبرته وتجاربه والمرتبطة فى الغالب بموضوع القصيدة .

ولقد ظل هذا الاتجاه سائدا لدى طائفة من الشعراء الإسلاميين ، بيد أن الأمر في المساجلات الشعرية ـ وإن سار شعراؤها علي نهج السابقين ـ لا يعدم بعض أوجه الاختلاف ، وبيان ذلك أن الشاعر حين يتغزل أو يقف علي الأطلال فإنه لا يعرج علي كل الأغراض التمهيدية من غزل ووصف وحكمة ٠٠٠ الخ وإنما يكتفي بعدد من الأبيات التي يصدر بها قصيدته ويستهل بها أبياته ثم يتخلص إلي غرضه الأصلي الذي أنشأ قصيدته من أجله ، الأمر الذي يجعل من هذا الصنيع حلقه من حلقات التخلص من كل ما هو قديم ، ومرحلة انتقالية تتهيأ فيها القصيدة العربية للتحول من الطور الجاهلي إلي طور جديد يواكب روح العصر ومتطلبات الحياة ، ونستطيع أن نتبين معالم المنهج التقليدى حين نتأمل قصيدة حسان بن ثابت التي يرد بها علي ابن الزبعرى في يوم الخندق يقول في مطلعها :

هل رسم دراسة المقام يباب متكلم لمحاور بجواب
قفر عفا رهم السحاب رسومه وهبوب كل مطلة مرباب
ولقد رأيت بها الحلول يزينهم بيض الوجوه ثواقب الأحساب

فدع الديـار وذكر كل خـريدة بيضـاء آنسـة الحديث كعـاب

واشك الهموم إلي الإله وما تري من معشر ظلموا الرسول غضاب(١)

فحسان ههنا لم يطل الوقوف علي الديار ولـم يسـهب فـي ذكر الأوانس الكعاب ، بل إن الأمر لم يتجاوز أبياتا ثلاثة تهيأ فيها الشاعر للدخول في غرضه الأصلي وهو الرد علي شاعر الكفار وتفنيد ما أورده في قصيدته من مزاعم وأباطيل ، ومن الجدير بالذكر أن كعب بن مالك قد شارك حسانا في الرد علي ابن الزبعري وجاءت قصيدته بلا مقدمات أيضا اللهم إلا إذا استثنينا هذه المقدمة التي تظهر فيها الروح الإسلامية حيث يقول :

أبقي لنا حدث الحروب بقيـة من خير نحلـة ربنا الوهـاب

بيضاء مشرقة الذري ومعاطنا حم الجذوع غزيرة الأحلاب

ومن نماذج المقدمات التقليدية أيضا قول ابن الزبعري في يوم أحد :

ألا ذرفت من مقلتيـك دمـوع وقد بان من حبل الشباب قطوع

وشط يمين تهوي المزار وفرقت نوى الحي دار بالحبيب فجوع

وليس لما ولي علي ذي حرارة وإن طال تذراف الدموع رجوع

فذر ذا ولكن هل أتي أم مالك أحاديث قومي والحديث يشيع

فيجيبه حسان أيضا فيقول :

أشاقك من أم الوليـد ربـوع بلاقـع ما من أهلهن جميـع

عفاهن صيفي الرياح وواكف من الدلو رجاف السحاب هموع

فلم يبق إلا مورد النار حـوله وواكـد أمثـال الحمـام كنـوع

فدع ذكر دار بددت بين أهلها لؤى لمتينـات الحبـال قطـوع

---

(١) الخريـدة من النساء : البكر التي لم تمس أو الحيية الخافضة الصوت .

وكلا الشاعرين قد اختصر الأمر اختصارا سرعان ما يسلمه إلي غرضه الأصلي وموضوع قصيدته الذي فرغ له جل همه ووقف عليه طاقته وشاعريته وكأن نفس الشاعر قد ضاقت بكل تقليد يحول بينها وبين الإفضاء بما يجيش بها عواطف وما يختلج فيها من انفعالات ٠

كما شهدت المساجلات الشعرية بعض القصائد ذات المقدمات التقليدية التي ينتقل فيها الشاعر من الغزل إلي الوصف ثم يتخلص إلي غرضه الأصلي موضوع المساجلة ، ومن ذلك قصيدة هبيرة بن أبي وهب في يوم أحد ، يقول في مطلعها :

ما بال هم عميد بات يطرقني بالود من هند إذ تعدو عواديها
باتت تعاتبني هند وتعذلني والحرب قد شغلت عني مواليها
مهلا فلا تعذليني إن من خلقي ما قد علمت وما إن لست أخفيها
مساعف لبني كعب بما كلفوا حمال عبء وأثقال أعانيها

ثم يقول واصفا رحلته وفرسه الذي امتطاه في هذا اليوم العصيب :

وقد حملت سلاحي فوق مشترف ساط سبوح إذا تجري يباريها
كأنه إذا جري غير بدفدة مكدم لاحق بالعون يحميها
من آل أعوج يرتاح الندي له كجدع شعراء مستعل مراميها
أعددته ورقاق الحد منتخلا وما رنا لخطوب قد ألاقيها
هذا وبيضاء مثل النهي محكمة نيطت علي فما تبدو مساويها

فالشاعر هنا قد أسهب بعض إسهاب فذكر ما دار بين امرأته من أخذ ورد قبيل خروجه للحرب وامتطاءه صهوة فرسه وتجهيزه لعدته ،علي حين يكتفي حسان بالرد المباشر دون مقدمات غزليه أو طلليه ، وإذا كان شاعر الكفار في النموذج السابق قد أطال التقديم ونوع الأغراض واكتفي شاعر المسلمين بالرد المباشر فإن حسان بن ثابت يقدم لقصيدته التالية بمقدمة غزلية ومما جاء فيها :

تبلت فؤادك في المنام خريدة تسقي الضجيع ببارد بسام

كالمسك تخلطه بماء سحابة أو عاتق كدم الذبيح مدام
نفج الحقيبة بوصها متنضد بلهاء غير وشيكة الأقسام
بنيت علي قطن أجم كأنه فضلا إذا قعدت مداك رخام
وتكاد تكسل أن تجيء فراشها في جسم خرعبة وحسن قوام
أما النهار فلا أفتر ذكرها والليل توزعني بها أحلامي
أقسمت أنساها وأترك ذكرها حتى تغيب في الضريح عظامي
يا من لعاذلة تلوم سفاهة ولقد عصيت علي الهوىلوامى
بكرت علي بسحرة بعد الكري وتقارب من حادث الأيام
زعمت بأن المرء يكرب يومه عدم لمعتكر من الأصرام
إن كنت كاذبة الذي حدثني فنجوت منجي الحارث بن هشام (

ويظهر أن حسانا قد عاد إلي سرته الأولي في نظم الشعر ، ولا غرو فلقد عاش ردحا من الزمن في ظل التقاليد الجاهلية وهو واحد من المخضرمين فأطال بعض الشيء في مقدمته الغزلية ولعل السر في ذلك أنه قد أنيط به إطلاق الشرارة الأولي للمساجلة وكانت له ولإخوانه من المسلمين اليد الطولي في بدر ، ليس ثمت ما يدعو إلي العجلة والتعجل في النظم أو الإسراع إلي الغرض ، ولعل هذا هو السر أيضا في اعتقال لسان الحارث بن هشام فلم ينطق بغير أبيات ثلاثة يقول فيها :

الله أعلم ما تركت قتالهم حتى حبوا مهري بأشقر مزبد
وعرفت أني أن أقاتل واحدا أقتل ولا ينكي عدوي مشهدي
فصددت عنهم والأحبة فيهم طمعا لهم بعقاب يوم مفسد (١)

---

(١) الحقيبة : ضخمة الأرداف ، بوصها متنضد : أي الكفل يعلو بعضه بضا ، بلهاء : غافلة عن الشر ، غير وشيكة الأقسام : غير سريعة اليمين ، قطن : العجيزة ، أجم : ممتلىء ، فضلا : متفضلة أي في ثوب واحد ، خرعبة : الخرعب هو الغصن الناعم الغض ، الأصرام : الإبل الكثيرة

(٢)السيرة النبوية ٢/ ١٧٠ ، وينظر : ديوان حسان بن ثابت ١٠٧

القصد المباشر إلي الموضوع :

وهذا هو الاتجاه الغالب علي المساجلات الشعرية بل علي النتاج الشعري في صدر الإسلام ، وبخاصة أن هذا الشعر إنما ينظم للدفاع عن الرسول وصحبه والدعوة إلي قيم الإسلام وهدية ، والرد علي شعراء المشركين وكلها أغراض تتطلب من الشاعر أن يصل إلي غايته من أقرب الطرق ويتجنب المقدمات التقليدية وبخاصة إذا كانت تتضمن أمورا يتحرج منها المسلم كالغزل بالنساء والذكر لمحاسنهن علي مسمع من النبي (ﷺ) وصحابته الكرام ، يضاف إلي ذلك أن الشاعر لم تتوفر لديه في معظم الأحيان فرصته التمهل في النظم والتريث في تجويد القصائد والإطالة فيها لأنه كان يرتجل الشعر ارتجالا يسعفه بالرد علي مناوئيه من شعراء الخصوم مما كان سببا في غلبة المقطوعات الشعرية والقصائد القصيرة علي هذا النوع من الشعر، ولعل في هذا ما يتقدم بالقصيدة العربية خطوات مهمة نحو وحدتها العضوية التي بشر بها نقادنا المحدثون .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٧٠

ثانيا : الألفاظ والأساليب

الألفاظ من العناصر المهمة فى الإبداع الشعري والمادة التى يشكل منها الأديب تجاربه ويعبر من خلالها عن أحاسيسه ومشاعره تجاه الحياة والأحياء ، (والأسلوب هو اتجاه الأديب وطريقته فى النظم والتأليف على نحو يختص به ويميزه عن غيره من الأدباء (١) وهو من الأهمية بحيث لا يعد الأديب أدبيا إلا إذا كان له أسلوبه الخاص وشخصية المتميزة وبصمته الواضحة ،

والمتأمل في المساجلات الشعرية يلحظ طائفة من الظواهر الأسلوبية ومنها ما يلي:

(١) التأثر بأسلوب القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف :

تمثل المساجلات الشعرية الإسلامية لونا من الأدب الإسلامي الذي اضطلع شعراؤه بحمل لواء الدين والدفاع عن الرسول وصحابته وإبراز القيم الإسلامية في قصائدهم ومقطوعاتهم (وفي الأدب الإسلامي تسرى روحية الإسلام حيث يرجع إلي مصدرين أساسيين هما القرآن الكريم والسنة الشريفة فينهلون من معينهما ويتأدبون بفيض منهما ، وكان الشاعر يسجل في شعره فضائل الإسلام وخلق القرآن وتعاليم الحديث النبوي التي تأصلت في نفس الرسول وأصحابه واتصفوا بها عن إيمان وأخلصوا فيها عن عقيدة (٢)

والحق أن نماذج الاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي والروح الإسلامي كثيرة مما يدل علي حضورها الدائم في وعي الشعراء وإيمانهم العميق بالله ورسوله ، ومن نماذج الأثر القرآني قول كعب بن مالك :

وفينا رسول الله والأوس حوله له معقل منهم عزيز وناصر

وهنا تبدو أمارات التأثر بقوله تعالي (واعلموا أن فيكم رسول الله)

---

(١) في ميزان النقد الأدبي د/ طه أبوكريشة ٤٧

(٢) الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق د / علي صبح ١٥٣

وقوله أيضا :

بأن الله ليس له شريك وأن الله مولي المؤمنينا

فهو مأخوذ من قوله تعالي (ذلك بأن الله مولي الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولي لهم) ، وقوله مصورا هزيمة الأحزاب :

خزايا لم تنالوا ثم خيرا وكدتم أن تكونوا دامرينا

وقول حسان : وغدوا علينا قادرين بأيدهم ردوا ابغيظهم علي الأعقاب

وفيه يظهر الاقتباس من قوله تعالي : (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا)

وقول حسان :

فكفي الإله المؤمنين قتالهم وأثابهم في الأجر خير ثواب

ولا يخفي أثر قوله سبحانه (وكفي الله المؤمنين القتال) ،وقول حسان أيضا :

من بعد ما قنطوا ففرق جمعهم تنزيل نصر مليكنا الوهاب

فهو مأخوذ من قول الحق سبحانه (وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد)

كما يتضح الأثر القرآني في قول سيدنا حمزة في بدر علي لسان إبليس :

وقال لهم إذ عاين الأمر واضحا برئت إليكم ما بى اليوم من صبر

فإني أري ما لا ترون وإنني أخاف عقاب الله والله ذو قسر

فكأن الشاعر هنا يعمد إلي نظم قوله تعالي عن موقف الشيطان من الكفار (وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص علي عقبه وقال إني بريء منكم إني أري مالا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب) ، وفي قول حسان عن مصير قتلي الكفار :

وقتلاكم في النار أفضل رزقهم حميم معافى جوفها وضريع

يظهر أثر قوله تعالي (ليس لهم طعام إلا من ضريع) ٠

ومن نماذج التأثر بالبلاغة النبوية قول حسان في وصف الصحابة :

سجية تلك فيهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرها البدع

فقد أخذ هذا المعنى من قول الرسول (ﷺ) : (فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد (ﷺ) وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار)

يضاف إلى ما سبق أن جل معاني المساجلات الشعرية وما تنطوى عليه من أفكار إنما هي ترجمة عملية لما أفاده الشعراء من تقاليد الإسلام وما هدى إليه البشر من قيم وآداب ، وحسبنا أن نشير إلى عينية حسان بن ثابت وما تنطوي عليه من الأمر بالتقوى أو الإشادة بصفات الحلم والعفة والتواضع والعزة والسمو التى تدل على سريان الروح الإسلامى فى القصيدة كما تشير من طرف خفي إلي كراهية العصيان لأمر الله عز وجل وأوامر نبيه (ﷺ) وإيذائه والتفاخر بحضرته والتعاظم بالأمجاد والتمدح بالآباء والأجداد إلى غير ذلك من الصفات التى يأباها الإسلام وعبر عنها الشاعر في قصيدته أجمل تعبير وأوفاه ٠

كما شهدت تلك المساجلات استحداث معجم شعري جديد ظهر في نتاج الشعراء الإسلاميين ، وعماده ألفاظ تعبر عن الروح الإسلامية وروافدها الأساسية من قرآن وسنة ، وتكفي الإشارة إلي كلمات الإيمان ، الكفر، التوحيد ، الشرك ، الجنة ، النار، الله ، الرسول ، النبي ، التقي ، طاعة الله ، تصديق الرسول ، الطاعة ، المعصية ، الآيات ، المهاجرين ، الأنصار ، الصبر ، العدل ، التوكل ، الصدق ، العباد ، الإخلاص ، المواعظ ، الهداية ، الضلال ٠٠٠إلخ وكلها نتاج مظلة إسلامية جديدة ظهرت آثارها المباركة في نتاج الشعراء الإسلاميين ،

(٢)استبدال الوعورة الجاهلية بالرقة الإسلامية :

لما جاء الإسلام ونزل القرآن أحدث ثورة لغوية غيرت نظرة الأدباء والشعراء إلي اللغة فإذا بهم يؤثرون السهولة علي الوعورة والواضح المألوف بدلا من الغريب

الحوشى ، ولعل السر في ذلك أن شمس الإسلام حين أشرقت علي الكون أحالت ظلمته نورا وغربته أمنا وسكينة وتحول الناس من التخبط بين آلهه شتي إلي الاهتداء بنور الله الواحد ، والشاعر حين يؤثر وضوح العبارة وسهولة اللفظ إنما يواكب روح العصر ويلبي متطلبات الحياة الإسلامية الجديدة ، وهذا ما تؤكده أدني مقارنه بين الشعر الجاهلي ونظيره الإسلامي وحسبنا في تأكيد ذلك ما سبقت الإشارة إليه من الألفاظ المرتبطة بفرائض الدين وشعائر الإسلام وما توحي به من ثورة لغوية وأسلوبية شاملة ، بيد أن الأمر لا يخلو من بعض أوجه الارتداد إلي الماضي وتمثل طرائق القدماء في استعمالهم للفظة الغربية والكلمة الحوشية (ولعل السبب في ذلك أن شعراء المسلمين كانوا موزعين بين عاملين كل منهما يجتذب مواهبهم الفنية ويحاول صبغها بصبغته ، فالعامل الموروث يجذبهم إلي التعبير عن الحاجات الجاهلية التي نشأوا عليها ، وألفوها واستجابوا لها فترة طويلة من حياتهم حتى صارت جزءا من تكوينهم الفكري والخلقي والفني ، والعامل المحدث يجذبهم إلي حاجات الإسلام الجديدة التي غدت هي الأخرى جزءا من حياتهم الجديدة وضرورة تمليها عليهم تعاليم الإسلام ،

ولم يكن لهؤلاء الشعراء (المخضرمين) بد من أن يحاولوا التوفيق بين هاتين الحاجتين لأنهم لن يستطيعوا أن ينزعوا عنهم موروثات الجاهلية القريبة وآثارها حتى لو أرادوا ، ومن هنا نستطيع أن نفهم هذا التذبذب بين القديم والحديث في شعر حسان وغير حسان من شعراء هذه الفترة فالرواسب الجاهلية في شاعريتهم تعيش جنبا إلي جنب مع النزعات الإسلامية في نفوسهم ووجداناتهم ، وهذا أمر طبيعي في هذه المرحلة لأن كل هؤلاء الشعراء قد تخرجوا في مدرسة الشعر الجاهلي) (١)

ولئن أردنا أمثله علي هذا الأثر الجاهلي في شعر المساجلات فلن نعدم كثيرا من

---

(١) الأدب في عصر النبوة والراشدين د / صلاح الهادي ٢٦٥

النماذج ويكفي أن نشير إلي ألفاظ مثل : العناجيج ، خريدة ، خرعبة ، الدموك ، سميدع ، جحجاح رفل الخناطيل ، الأشداف ، بلاقع ، العجاجة ، النجيع ،متخمطون ،عري الشوي، النحض ، دخس البضيع ،خفيفة الأقصاب ، صئاب ،الصياقل ، طخية ، قواحز النشاب ٠٠٠ إلخ ، ولعل السبب في هذه المسالك الوعرة حرص الشعراء علي تحقيق التناسب بين الألفاظ والمعاني ذلك أن الشاعر حين يتحدث عن أخلاق الإسلام وتعاليم الدين وطاعة الله ورسوله يأتي بألفاظه من وادي العذوبة والسلاسة والرقة المفرطة ، وحين يصف الحرب أو يصور هيبة المسلمين وعزتهم فإننا نلحظ ميلا واضحا إلي الألفاظ التي توحي بالهيبة وتلقي الرعب والفزع في قلوب الأعداء ، ولئن أردنا مزيدا من النماذج فلنتأمل هذين النوعين من الألفاظ في عينية حسان في الرد علي وفد بني تميم ذلك أن الشاعر يستعمل من النوع الأول ألفاظ : الذوائب ، سنة ، يرضي ، سريرته ، تقوي الإله ، سجية ، أخلاقهم ، متسع أعفة إلي آخره ، ومن النوع الثاني مثل قوله : شرا يخاض عليه الصاب والسلع في الوغى ، الموت مكتنع ، أسد ببيشة ، في أرساغها فدع ، استقاد ، في مخالبها الزعانف ، يدب ، الوحشية ٠٠٠ إلخ

فهذا كله يدل علي حرص الشعراء الإسلاميين علي أن يصدروا في شعرهم عن القيم الجديدة أما ما ورد في قصائدهم من ألفاظ غريبة وكلمات وعرة وعبارات قديمة فإن السر في ذلك أنها تلبي حاجة فنية لدي الشاعر والمتلقي وتدعوا إليها ضرورة المساجلات الشعرية التي تفرض علي الشاعر أن يجابه الخصوم ويرد كيدهم بما يناسب ذلك من أسلحة الحرب والأدب والشعر

(٣) ظواهر أسلوبية أخري :

كما تحفل المساجلات بعدد من الظواهر الأسلوبية التي أثرت تأثيرا إيجابيا وساعدت علي نقل الرؤية الشعرية نقلا بارعا ، ومن ذلك الاعتماد علي عدد من المحسنات البديعية ،وهي طائفة من ألوان البديع استعان بها الشعراء لإضفاء نوع

من البراعة والقوة والجمال علي قصائدهم ، ومن نماذج الطباق قول حسان في الرد علي ابن الزبعري في أحد ودفاعه عن المسلمين :

وفوا إذا كفرتم يا سخين بربكم لا يستوي عبد وفي ومضيع

حيث جمع بين (وفوا – كفرتم) وبين (وفي – مضيع) لإظهار المفارقة بين الإيمان والكفر والبون الشاسع بين المسلمين وأعدائهم وفرق بين من وفي بعهد الله واتبع هداه وبين من اتبعه الشيطان فانسلخ من الهداية إلي الضلال ومن مقابلات حسان بن ثابت أيضا :

وأقر عين محمد وصحابه وأذل كل مكذب مرتاب

فالمقابلة هنا توحي بالسعادة الغامرة بتأييد الله لنبيه وصحبه وهزيمته للأحزاب في يوم الخندق ، ومن نماذج الجناس قول كعب بن مالك :

عجبت لأمر الله والله قادر علي ما أراد ليس لله قاهر

(وفي هذا البيت يجانس الشاعر بين قادر وماهر وفي كل ذلك يبتعد عن التكلف ويحقق للمتلقي متعة ويضيف للبناء جمالا) (١) ومن نماذجه أيضا قول حمزة بن عبد المطلب مستهلا قصيدته في يوم بدر :

ألم تر أمر أكان من عجب الدهر وللحين أسباب مبينة الأمر

والجناس بين الدهر والأمر فضلا عن التصريع يشد الانتباه ويدعو إلي الإصغاء لما تتطوى عليه القصيدة من مفاخر حفلت بها غزوة بدرالمباركة ،

ومن الظواهر الإيجابية في شعر المساجلات ما يسميه البلاغيون (رد العجز علي الصدر) ويمكن أن نعده من أوجه التكرار التي لا تخلوا من الأسرار والدلالات ، وذلك لما في البيت من تمهيد وتوطئة ثم ما يأتي في عجزه من أحكام هي أقرب إلي القطع واليقين ، ومن ذلك قول حسان بمن مشيرا إلي قتلي بدر من سادات قريش :

---

(١) الشعر الإسلامي في عصر صدر الإسلام د / عبد الله مهران م الأمانة ط أولي ١٩٩٧- ١٣٣

أولئك قوم سادة من فروعكم وفي كل قوم سادة وفروع

وقول حمزة مشيرا إلي مقتل عمر بن هشام :

وعمرو ثوى فيمن ثوى من حماتهم فشقت جيوب النائحات علي عمرو

ومن الظواهر الأسلوبية التي عمادها التكرار أيضا ما يسمي مراعاة النظير ، حيث يلجأ الشاعر إلي حشد الألفاظ المترادفة والأوصاف المتشابهة لموصوف واحد لإضفاء مزيد من التأكيد والعناية والاهتمام ، ومن نماذجه قول حسان متشفيا بقتل سادات قريش :

كم قتلنا من كريم سيد ماجد الجدين مقدام بطل

وقوله عن النبي (ﷺ) في مخاطبة ابن الزبعري :

وذكرت منا ماجدا ذا همة سمح الخلائق صادق الإقدام

ومن صور التكرار النادرة في شعر المساجلات قول كعب بن مالك مشيرا إلي اندحار قوي البغي في غزوة الخندق

جاءت سخينة كي تغالب ربها فليغلبن مغالب الغلاب

وفيه إشارة إلي سعي الكفار لإطفاء نور الله ولكن الله كان لهم بالمرصاد ، كما يوحي من طرف خفي إلي أن هذا هو المصير الذي ينتظر كل من يعادي الله ورسوله في كل زمان ومكان ، ولعل هذا هو السر في إعجاب النبي (ﷺ) بهذا البيت حيث قال : لقد شكرك الله يا كعب علي قولك هذا) (١)

ومن الظواهر البارزة في شعر المساجلات اعتماد الشعراء علي أسلوب القصص القائم علي السرد تارة وعلي الحوار تارة أخري ، وتلك ظاهرة تناسب ما نحن بصدده من سرد الأحداث والوقائع والرد علي الأعداء ومجابهة الخصوم ومن ثم

---

(١) السيرة النبوية ١٦٢

فإننا لا نعجب حين نلحظ تكاثر النماذج التي يكتنفها هذا الأسلوب القصص الذي اعتمد عليه الشعراء في التاريخ لهذه الغزوات وتسجيل شهدت من بطولات وما أعقبها من نتائج ، مما يؤهل هذه القصائد لتكون سجلا حافلا للبطولة الإسلامية والجهاد النبوي في سبيل نشر الدين وإعلاء كلمة التوحيد ،

ومن نماذج الحوار قول كعب بن مالك عن بني النصير في ردهم علي رسول الإسلام :

فقالوا : ما أتيت بأمر صدق وأنت بمنكر منا جدير

فقال : بلي لقد أديت حقا يصدقني به الفهم الخبير

فمن يتبعه يهد لكل رشد ومن يكفر به يجز الكفور

(وفي هذه الأبيات يظهر الحوار الدائر بين الكفار والنبي (ﷺ) وهذا الحوار يكشف عن رحابة صدر النبي (ﷺ) في مناقشة الكفار ، فبالرغم من تكذيبهم له لم يضق بهم ذرعا ولكنه ناقشهم ورد عليهم وجهة نظرهم بالحجة القاطعة والبرهان الساطع)(١)

---

(١) الشعر الإسلامي د / عبد الله مهران ١٣٥

ثالثا:التصوير الشعري :

الصورة هي الوسيلة الفنية الجوهرية لنقل التجربة ، سواء أكانت صورة كلية أم جزئية ، فما التجربة الشعرية كلها إلا صورة كبيرة ذات أجزاء هي بدورها صور جزئية تقوم من الصورة الكلية مقام الحوادث الجزئية من الحدث الأساسي في المسرحية والقصة (١)

فالصورة من مقومات الشعر الأساسية ، ومن أبدع ما يتوسل به الشاعر إلي التعبير عن عواطفه وأفكاره وخلجات نفسه ، فضلا عن كونها مقياسا لقوة الموهبة وأصالتها ومعيارا فارقا بين الشعراء والأدعياء والموهوبين والمتنشاعرين ٠

والمتأمل في شعر المساجلات يلحظ اعتماد الشعراء علي التعبير الحقيقي والترتيب المنطقي للجمل والعبارات أكثر من اعتماده علي الصور المجازية ، ولا يعد هذا عيبا (فليس المجاز هو الوسيلة الوحيدة لتشكيل الصور الشعرية والشاعر المتمكن من وسائل الأداء الفني يستطيع أن يغزو القلوب والمشاعر وهو متشبث بالحقيقة أسلوبا وتعبيرا ومضمونا ، بل يستطيع أن يرسم الصور المثيرة من خلال تلك الألفاظ التي لا تمت إلي أي لون من ألوان المجاز بصلة (٢)

ومن نماذج التعبير الحقيقي قول حسان في شأن الصحابة :

إن سابقوا الناس يوما فاز سبقهم ووازنوا أهل مجد بالندى متعوا

فالشاعر يصور الصحابة فى مضمار التسابق مع الخصوم والأعداء بيد أن أحدا من الناس لا يقدر علي مسابقتهم فضلا عن التفوق عليهم ، ولا غرو فهؤلاء الصحابة لا يستمدون قوتهم وبسالتهم من إمكانيات بشرية أو قدرات ذاتية وإنما يرفدها مدد إلهي وتأييد رباني ، والمهم أن الشاعر قد استطاع أن يصور هذا المشهد تصويرا

---

(١) النقد الأدبي الحديث د/ محمد غنيمى هلال ٤١٧

(٢) ينظر : محمد هاشم رشيد أضواء علي شعره وشاعريته د/ رزق داود١٣٧

بارعا دون أن يعول علي أي لون من ألوان المجاز ، ومن ذلك أيضا قول حسان منوها بطاعتهم لله ولرسوله:

إن قال سيروا أجدوا السير جهدهم أو قال عوجوا علينا ساعة ربعوا

فكأني بالرسول (صلي الله عليه وسلم) يأمر أصحابه تارة بالسير وأخرى بالتوقف أو العودة وهم لا يألون جهدا في سبيل إرضائه ولا يدخرون وسعا في التعبير عن الطاعة المطلقة والإذعان التام لأوامره (ﷺ) هذا كله عبر عنه الشاعر بهذه الصورة الرائعة برغم أن العلاقة بين عناصرها وتراكيبها علاقة منطقية ليس فيها أى استخدام مجازى للكلمات ، وقوله أيضا :

لا فخر إن هم أصابوا من عدوهم وإن أصيبوا فلا خور ولا جزع

فالشاعر يخلع على الصحابة كثيرا من صفات التواضع في النصر والرضا والاستسلام عند وقوع الهزيمة فهم بأحسن حال من السكينة والوقار والطمأنينة التي يصورها هذا البيت وغيره عن طريق الألفاظ المستعملة فيما وضعت له دون استعارة أو تشبيه أو سواهما من صور المجاز ، وفي الوقت نفسه استطاع الشاعر أن يضفى علي قصيدته كثيرا من ملامح التأثير ومقومات الشاعرية ،

ومن نماذج التعبير الحقيقي أيضا قول كعب بن مالك مصورا مسير الكفار نحو الرسول وأصحابه :

قضي يوم بدر أن نلاقي معشرا بغوا وسبيل البغي بالناس جائر

وقد حشدوا واستنفرو من يليهم من الناس حتى جمعهم متكاثر

وسارت إلينا لا تحاول غيرنا بأجمعها كعب جميعا وعامر

وفينا رسول الله والأوس حوله له معقل منهم عزيز وناصر

وجمع بني النجار تحت لوائه يمشون في الماذى والنقع سائر

فالشاعر يصور مسير أولئك البغاة وحشدهم للقبائل تحريكهم الأحقاد وتوزعهم الضغينة الهوجاء علي الإسلام واستئصال شأفة المسلمين والقضاء علي الدعوة في

مهدها ثم ينتقل الشاعر إلي وصف المقام النبوي وسط إخوانه وأنصاره الذين لا يألون جهدا في سبيل نصرته وإعلاء كلمة الحق الذي جاء به مهما تكبدوا من مشقة ، وما صادفوا من أهوال ، وقريب من هذه الصورة قول حسان بن ثابت في تصوير مسير الأحزاب نحو مدينة الرسول :

ساروا بأجمعهم إليه وألبوا أهل القرى وبوادي الأعراب

واستكمالا لألوان التصوير ، واستيعابا لطرفيه الحقيقي والمجازي يستعين شعراء المساجلات بطائفة من الصور المجازية التي تحمل في طياتها كثيرا من الإيحاءات والظلال ، وتدل علي مقدرة لا تتأتي لكثير من الشعراء ، ومن هذا اللون ذلك التصوير البارع للبطولة الإسلامية وما أفاده المسلمون من غنائم وأسلاب وما اكتسبوه من براعة في القتال وصبر علي مواجهة الأعداء ، ومما قيل :

ونزائعا مثل السراج نمي بها علف الشعير وجزة المقضاب
عري الشوى منها وأردف نحضها جرد المتون وسائر الأراب
قود تراح إلي الصياح إذا غدت فعلي الضراء تراح للكلاب
وتحوط سائمة الديار وتارة تردي العدى وتراح بالأسلاب (١)

فالشاعر يصف الامتنان الإلهي علي أبطال الإسلام وما أفاء عليهم من الإبل الكثيرة والخيول العربية الأصيلة التي تعرف بقوتها وصلابتها وعلو همتها وقوة احتمالها وارتيادها للحروب وعودتها بالغنائم والأسلاب ،

ومن ذلك أيضا قول كعب بن مالك مصور البطولة الإسلامية في الخندق :

وفي أيماننا بيض خفاف بها نشفي مراح الشاغبينا
بباب الخندقين كأن أسدا شوابكهن يحمين العرينا

---

(١) نزائع : الخيل العربية المصدرة إلي البلاد الأخري ، الشوي : أطراف الجسم ، النحض : اللحم ، الآراب : الأعضاء ، قود : طول ، الضراء : الكلاب المتعلمة .

فالشاعر يصف الدواء لهذا المرض العضال الذي أصاب أعداء الإسلام ٠ وما ذلك الدواء إلا السيف فبه وحده تحسم المعارك ويحق الحق ويقطع دابر الكافرين ، ثم يصور أبطال المسلمين في تصديهم للأعداء بباب الخندق في صورة أسود قوية لا يجرؤ أحد علي الاقتراب من عرينها أو مها جمة حماها ، ويقول كعب أيضا مصورا نكبه المسلمين في أحد بقتل سيدا الشهداء حمزة :

كحمزة لما وفي صادقا بذي هبة صارم سلجج

فلاقاه عبد بني نوفل يبرر كالجمل الأدعج

فأوجره حربة كالشهاب تلهب في اللهب الموهج

فبينا كان حمزة يصول ويجول ويمعن في الكفار طعنا وتقتيلا باغته وحشي بحربة تشبه في لمعانها وبريقها صورة الشهاب اللامع حتى أرداه قتيلا ملبيا نداء خالقه ومستجيبا لدعوة ربه إلي الحياة الخالدة في جنة عرضها السماوات والأرض ٠ ويقول حسان منكرا علي قريش حشدها للقبائل العربية لمحاربة المسلمين :

أوردتموها حياض الموت ضاحية فالنار موعدها والقتل لاقيها

فالشاعر يصور جيوش الأعداء وجحافل العرب في تداعيهم علي المسلمين وحرصهم علي الاعتداء علي مدينة الرسول بيد أن الله كان لهم بالمرصاد فأوردهم موارد الموت والتهلكة في الدنيا والنار والعذاب في الآخرة ٠

ومن روائع الصور قول حسان بن ثابت في مطلع قصيدته العينية :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع

فلقد صور الممدوحين في صورة الذوائب التي تحتل من الإنسان أشرف مكان وأعلاه وهو مقدمة الرأس وأعلي الجسد فكأن الرسول وصحبه هم رأس البشر وأكرم الناس فلا يستطيع أحد أن يطاولهم في المجد والسؤدد أو يدانيهم في العز والشرف ، ويقول أيضا :

لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم عند الدفاع ولا يوهون مارقعوا

وفي هذا البيت يثبت الشاعر للصحابة كثيرا من صفات العز والقوة والبأس والنجدة ذلك أن أحدا لا يستطيع رفع من وضعوه أو يستذل من رفعوه ، صور ذلك في صورة ثوب مهلهل لا يستطيع أحد سواهم له نسجا أو يملك له إصلاحا ، ويقول أيضا :

نسمو إذا الحرب نالتنا مخالبها إذا الزعانف من أظفارها خشعوا

فلقد صور الحرب في صورة الوحش الكاسر والأسد الهصور تطال مخالبه القوية كل الفرائس والضحايا ٠

صفوة القول إن شعراء المساجلات استطاعوا أن يزاوجوا بين الصور المتنوعة مزاوجة بارعة تمكنوا من خلالها أن يثبتوا للرسول وصحابته حشدا من المكارم والصفات وأن يظهروا أثر الإسلام فيما نسجوه من الصور وأن يعبروا عما يكنونه للمهاجرين والأنصار من الحب والتقدير ٠

المساجلات الشعرية في ميزان النقد

تعد المساجلات الشعرية دليلا علي قوة الشعر الإسلامي ، كما تمثل طورا من أهم الأطوار التي قطعها الشعر العربي ومرحلة من أهم المراحل التي قطعها الشعر في سبيل رقيه وازدهاره ، وسجلا تاريخيا للغزوات والوقائع التي خاضها المسلمون في سبيل نشر الدعوة الإسلامية ،

أما كونها دليل قوة للشعر فهذا ما أجمع عليه كثير من الأدباء والنقاد (١) أفصحت عنه النماذج التي يضمها هذا البحث ، وكلها تظهرنا علي أن الإسلام لم يكف العرب عن الشعر أو يوقف عطاء الشعراء فقد كان ينشد علي كل لسان ، وساعدت الأحداث علي ازدهاره لاعلي خموله سواء في معركة الإسلام مع الوثنيين والمرتدين أو في الفتوحات ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الإسلام أذكي جذوته وأشعلها إشعالا ، فإن أحداثه حلت من عقد الألسنة وأنطقت بالشعر كثيرا ممن لم يكونوا ينطقونه ، فإذا بثا نجد مكة التي لم تعرف في الجاهلية بشعر كثير يكثر شعراؤها ، وإذا بنا إزاء عشرات من الشعراء في الفتوح لم يشتهروا بالشعر ونظمه قبلها ، وهم يسمون جميعا مخضرمين من الخضرمة وهي الاختلاط لأنهم خلطوا في حياتهم بين الجاهلية والإسلام فعاشوا في العصرين معا)(٢)

وأما كون المساجلات تمثل طورا ناضجا من أطوار الشعر العربي في تلك الفترة فهذا ما تدل عليه أدني مقارنة له بنظيره الجاهلي وأدني تأمل لسماته وخصائصه ، وبيان ذلك أن (النقائض الشعرية في العصر الجاهلي قامت أولا علي نقض المعاني مع عدم التزام وحدة البحر والقافية ، ثم تطورت فقامت علي الاتحاد الموضوعي والمعنوي والموسيقي فنمت بذلك قواعدها المعروفة وكانت أهم فنوها الفخر

---

(١) ينظر: قيم جديدة بنت الشاطىء ، الأدب الإسلامي د/ علي صبح

(٢) العصر الإسلامي د/ شوقي ضيف ٤٦

والهجاء ، ومادتها تدور حول مقومات الحياة الجاهلية ، كالأيام والأنساب والأحساب ، والاعتراف بالظلم والعدوان والفضائل الاجتماعية التي أقرتها هذه الحياة كالفخر بالكرم والشجاعة والنجدة وكثرة العدد والسيادة والمروءة والهجاء بضد ذلك ، في إطار من العصبية القبلية وفي سبيل القبيلة ، ولذا لم تختلف فنيا عن غيرها من الشعر القبلي إلا من حيث أخذها بالأصول المقررة لفن المناقضات ، فإذا بحثت عن غاية النقائض الجاهلية وجدتها غالبا اشتفاء نفس مغيظة وسيرورة قبلية ، وافتخارا بالشعر ، وبعث الرهبة في النفوس ، ونحو ذلك من الأغراض القبلية الضيقة الأفق التي لا تحدث تحولا حتي في حياة القبيلة ، ولم يشغل الجاهليون كثيرا بهذا اللون من الشكل الشعري ، ولم يلتزموه في منازعاتهم الشعرية القبلية ، بل كانوا يقبلون عليه من حين إلي آخر ، وفي الفترة بعد الفترة فلم تكن التباعد بين القبائل والشعراء ليتيح الفرصة لانتظام هذا الفن بين شعرائهم)(١)

وأما المساجلات الشعرية التي أنشئت في ظلال الإسلام فقد كانت فنا محدد المعالم واضح القسمات كامل الأداة استعان به الشعراء للرد علي سلاح الشعر الذي شهره المشركون في وجه النبي ودعوته ومن ثم فإنها تختلف عن النقائض الجاهلية من حيث الموضوعات ، والمعاني ، والغاية ، والأسلوب ، أما موضوع المساجلات الإسلامية فقد (كان يدور حول دين بنشر ، وأمة تتكون ، وهداية تتبع ، صار موضوعا ساميا ، إنسانيا ، عاما أو- في أدني درجاته - قوميا عربيا بعد ما كان قبليا جاهليا (٢)

---

(١) الأدب في عصر النبوة والراشدين د \الهادي ٢٦٩ ، ٢٧٠

(٢) النقائض ١٣٠

وبوجه عام فلقد شهدت موضوعات الشعر تحولا كبيرا فلم يعد المدح والفخر فنونا ذاتية أو دعوة إلي عصبية وإنما هو فخر بالإيمان ومدح للمؤمنين الذين امتدحهم الله في كتابه الخالد وقرآنه العظيم ،

وأما المعاني فتتخذ من تعاليم الدين وهدي الإسلام منطلقا أساسيا بعد امتزاجها بوجدان الشاعر المسلم الذي يخضع كل أقواله وأفعاله لميزان الإسلام وهدي رسوله (ﷺ) واتخاذ البيان القرآني والهدي النبوي مثلا أعلي في سهولة المعني ووضوح الأسلوب وجمال الصياغة وحسن البيان ، مع البعد عن الإفحاش والإقذاع الذين ارتبطا في الأذهان بفن النقائض سواء أكانت جاهلية أو أموية ،

وأما غاية المساجلات الإسلامية فكانت في كل توجهاتها إسلامية بعد تراجع العصبية وتضاؤل الرابطة القبلية واستعلاء الأخوة الإسلامية والروابط الإيمانية ، ولا غرو فإن الإسلام (دين ودولة ونهضة عامة وسلطان شامل ، وإصلاح يتناول الجنس العربي والبشرية كلها ، فهو تحول في الحياة الإنسانية وطور خطير من أطوار التاريخ العام ، تزعمه الرسول ثم خلفاؤه وعمل في سبيله الشعر كما أصله القرآن والحديث وحمته الجيوش)(١)

أما الأسلوب فعلي الرغم من طغيان الأسلوب الجاهلي واستمرار سيطرته علي بعض الشعراء فإن تغيرا غير يسير قد طرأ عليه في عهد النبوة علي ألسنة الشعراء المؤمنين وقد سبق الحديث عن عدد من الظواهر الأسلوبية التي تتضمنها المساجلات الشعرية كالتأثر بأسلوب القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وإصدار الشعراء عن روح الإسلام بعد ما أشربت نفوسهم تعاليمه السمحة وآدابه الراقية ،

وأما كون المساجلات الشعرية سجلا للوقائع والغزوات فهذا ما سطرته أقلام الشعراء الذين اتخذوا الغزوات والوقائع محورا من أهم المحاور التي تدور حولها

---

١ النقائض ٣٣

المساجلات الشعرية بعامة ، حيث نجد تاريخا للغزوات التي خاضها المسلمون والوقائع التي سجلتها كتب السير وبخاصة غزوة بدر وغزوة أحد وغزوة الخندق وفتح مكة وغيرها من المواجهات الكبرى والأحداث المهمة التي سجلها الشعر لتكون دليلا علي العزة الإسلامية والجهاد المتصل لرفع راية الدين وإعلاء الحق وإزهاق الباطل وظهور كلمة الإسلام ، وبسط تعاليمه علي كل منحي الحياة الإنسانية .

والحق أن قيمة هذا الشعر ليست في تأريخه للأحداث المهمة وتسجيله للبطولة الإسلامية فحسب وإنما هو ذخيرة للأمة وعدة للإسلام في كل زمان ومكان ، وبخاصة حين يشعر المسلم بوطأة الواقع المؤلم والحاضر الكئيب والتمزق الهائل والانكسارات المتتابعة ، لكنه حين يعود إلي تراثه ويطالع في ديوان المساجلات الشعرية بما سجله من بطولات وانتصارات فإنه يشعر بنوع من الاستعلاء علي الحاضر المهين ، والمقاومة للإحساس بالضعف والهزيمة متخذا من استحضاره للمواجهات الحربية بين كتائب الإيمان وجحافل الكفر ما يذكر الأجيال المعاصرة بعطاء أمتها في الماضي وجهادها في سبيل عزتها ورفعتها ففي هذا ما يحقق الآمال في نهضة شاملة تعيد الأمور إلي نصابها الصحيح ، وتعود بالأمة العربية إلي مقام القيادة والتوجيه .

هذا ويؤخذ علي شعر المساجلات ما يلي :

أولا : ضعف المستوي الفني لبعض القصائد والمقطوعات فلم تكن المساجلات كلها علي مستوي واحد من الجودة الفنية وإنما يتسم أسلوبها أحيانا بالضعف والاضطراب ومن ذلك قول كعب بن مالك عن هزيمة الأحزاب :

بريح عاصف هبت عليكم فكنتم تحتها متكمهينا

فكلمة متكمهينا علي الرغم من دلالتها علي العمي إلا أنها تبدو قلقه في موضعها ولا تلائم بإيقاعها وجرسها ما يناط بالقافية ههنا من تصوير الهزيمة التي لحقت بالكفار في يوم الخندق ، وقول حسان :

أكرم بقوم رسول الله شيعتهم إذا تفرقت الأهواء والشيع

وكان الأولي أن يجعلهم شيعة الرسول فهذا أدل علي مراد الشاعر من نصرة الصحابة للرسول وانقيادهم له وليس العكس ، و قوله :

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

فقوله (حاولوا) فيه ضعف حيث لا يؤكد وصول نفعهم لأصدقائهم أو تحقق وقوعه.

ثانيا : الجفاف والنثرية وقلة الماء والرونق ومن ذلك قول هند بنت أثاثه في الرد علي هند بنت عتبه :

خزيت في بدر وبعد بدر يا بنت وقاع عظيم الكفر

صبحك الله غداة الفجر ملها شميين الطوال الزهر

بكل قطاع حسام يفري حمزة ليثي وعلي صقري

إذ رام شيب وأبوك غدري فخضبا منه ضواحي النحر

ونذرك السوء فشر نذر

فالأبيات توحي بانهزام في مضمار الشعر لا يقل عن نظيرة في ميدان المعركة ، كما يؤخذ علي بعض الشعراء المسلمين مجاراتهم لشعراء الكفار في الهجاء المقذع والشعر البغيض كقول حسان :

نخرج الأصبح من أستاهكم كسلاح النيب يأكلن العصل

وقوله في الرد علي كعب بن الأشرف :

فأبك فقد أبكيت عبدا راضعا شبه الكليب إلي الكليبة ينزع

وكان أولي بالشاعر المسلم أن يربأ بنفسه عن التورط في الهجاء علي هذا النحو المرفوض وترديد مثل هذه العبارات التي ينهي عنها الشرع الحنيف ،

ولعل السر في هذه المآخذ وغيرها يكمن فيما يلي :

أن جل هم الشاعر المسلم هو رد العدوان ودفع التهم التي توجه إليه في دينه وعقيدته بطريقة يغلب عليها الارتجال والإتيان بالقصائد والمقطوعات بصورة تلقائية دون أن يهتم بجانب التنقيح والتجويد والمراجعة ،

يضاف إلي ذلك أن الشاعر المسلم كان في معظم الأحوال مسبوقا بالنظم مبدوءا بالاعتداء ومن المعروف أن (البادىء يكون غالبا أطول نفسا وأقوي أسلوبا ، وأقوم معاني ، بخلاف الثاني فيكون أقصر قصيدا ،وأضعف صياغة وأهون معاني ، ولعل ذلك راجع إلي أن الشاعر الأول حر في اختيار الموضوع والمعاني والوزن والقافية ، ويكون مليئا بغرضه ،متأثرا ببواعثه فيختار ما يجعل قصيدته رائعة ،حتى إذا جاء الثاني وجد نفسه مقيدا بموضوع ربما لا يجيده ،وقد سبقه صاحبه إلي عفو المعاني وأحسنها ، وفرض عليه بحرا وقافية ،ووقفه أمام أمر واقع لم يستعد له فيخوضه مكرها أو محرجا فيقصر عن صاحبه) (١)

وليس معني ذلك تراجع الشاعرية الإسلامية بإزاء نظيرتها القرشية ويكفي أن يتصدر موكب الشعراء الإسلاميين حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحه ، وهم من يعرف لهم الأدباء والنقاد مكانتهم الشعرية ومنزلتهم الأدبية ودفاعهم الباسل عن الإسلام والمسلمين ،

ولست أبالغ حين أزعم أن الازدهار الشعري الذي حمل المسلمون لواءه في تلك الحقبة قد ألقي بظلاله علي الساحة الأدبية في الجزيرة العربية بعامة كما أثر تأثيرا إيجابيا علي الشاعرية القرشية بخاصة (إذ لولا الإسلام ولولا ما شنه

---

(١) النقائض ٢٦

علي المشركين عامة ومشركى قريش خاصة من حروب وغزوات لما نهضت الشاعرية القرشية ، ولا انبعثت قوية بعد أن كانت غير ذات خطر في الجاهلية) (١)

أما ما ورد في ثنايا المساجلات الإسلامية من هجو وإقذاع فإن مرده إلي أن أولئك الشعراء قضوا جل عمرهم في ظل التقاليد الجاهلية في صياغة الشعر ونظم الهجاء ومن ثم فلا عجب حين تتسرب أثارات الهجاء الجاهلي إلي شعر المخضرمين ، وأهم من ذلك أن الشعراء الإسلاميين لم يتوغلوا في السباب حرصا أن تكون بينهم صلة رحم ولو من بعيد وقد حرص الرسول (ﷺ) مراعاة لذلك أن يكون هجاء شعراء المسلمين للكفار فيه شيء من اللين ، وأن يبتعدوا جهدهم عن نقائض الأحساب والأعراض كما كان الشأن في العصر الجاهلي)(٢)

---

(١) الأدب في عصر النبوة والراشدين د- صلاح الدين الهادي٢٣٣

(٢) التأثير النفسي للإسلام في الشعر ودوره في عهد النبوة د / عبد الرحيم زلط ١٥٢

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أثر الإسلام في الشعر في عصر الرسول والخلفاء الراشدين د / السيد عويضة م الأمانة الطبعة الأولي

الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق د/ علي علي صبح ١٩٨٧

الأدب في عصر النبوة والراشدين د / صلاح الدين الهادي مكتبة الخانجي الطبعة الثالثة ١٩٨٧

الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر تحقيق علي محمد البجاوى المجلد الرابع دار الجيل بيروت أولي ١٩٩٢

الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني دار الكتب العلمية بيروت ٠

الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني طبعة دار الكتب المصرية

التأثير النفسي للإسلام في الشعر ودوره في عهد النبوة د / عبد الرحيم زلط د ت

تاريخ النقائض في الشعر العربي تأليف الأستاذ أحمد الشايب مكتبة النهضة المصرية الطبعة الرابعة ٢٠٠٢

تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ج ٥ / ص ٢١٢ دار صادر بيروت الطبعة الأولي ١٩٦٨

ديوان حسان بن ثابت ت د / سيد حنفي حسنين دار المعارف ٠

السيرة النبوية لابن هشام ، دار المنار الطبعة الثانية ١٩٩٣
الشعر الإسلامي في عصر صدر الإسلام قضاياه وخصائصه د / عبد الله مهران مطبعة الأمانة الطبعة الأولي ١٩٩٧
الشعر الأموي د / محمد فتوح أحمد دار المعارف الطبعة الأولي ١٩٩١
صحيح مسلم ت محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربي ط الثانية ١٩٧٢
العصر الإسلامي د / شوقي ضيف دار المعارف الطبعة الثانية عشرة
فقه السيرة النبوية د / محمد سعيد رمضان البوطي دار السلام الطبعة السادسة ١٩٩٩
في ميزان النقد الأدبي د / طه أبو كريشة م المليجي ١٩٧٦
قيم جديدة للأدب العربي د / عائشة عبد الرحمن دار المعارف الطبعة الثانية ١٩٧٠
لسان العرب لابن منظور دار صادر بيروت
المعارضة في الأدب العربي د / إبراهيم عوضين مطبعة السعادة الطبعة الأولي ١٩٨٠
محمد هاشم رشيد أضواء علي شعره وشاعريته د / رزق محمد داود م الأمانة
النقد الأدبي الحديث د / محمد غنيمي هلال ، نهضة مصر .